كتاب الهلال

محمّد عُودة

تقديم محمد حسنين هيكل

كرومر فى مصر



سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٢٥ - ذو القعدة ١٤٢٣ - يناير ٢٠٠٣

No 625 - Ja . 2003

اسعار بيع العدد فئة ٥ جنيهات

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٢ دينار - السعودية ١٢ ريال - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريال - دبى - أبو ظبى ١٢ درهم - سلطنة عمان ١,٢ ريال - المغرب ٤٠ درهم - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٥ فرنكات .

عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

كرومر فى مصر

بقلم : محمد عودة

تقديم : محمد حسنين هيكل

●

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنان : محيي الدين اللباد

تقديم بقلم : محمد حسنين هيكل

عندما دُعيت لتقديم هذا الكتاب للأستاذ «محمد عودة» ، لم أسأل - كما هو ضرورى - عن عنوان الكتاب، ولا عن موضوعه، ولم أطلب نصا أطلع عليه حتى أعرف مقدما ماذا أقول للناس عنه، وكيف أقوله لهم - والسبب أن الكتب فى عرفى نوعان :

نوع يزكيه موضوعه وعمق التناول وجاذبية العرض

ونوع ثانى يمهد له اسم كاتبه لأن الاسم وحده يكون علامة مميزة سابقة في الإيحاء بالقيمة حتى من قبل أن تتأكد هذه القيمة برضى القارىء وحكمه.

والسبق بالإيحاء فى القيمة - قبل الاختبار - لايؤثر على حق القارىء ولا يصادره، فهو أولا وأخيرا صاحب كل قول نهائي، لكننا فى هذه

النقطة أمام مسألة تستحق الاعتبار، ذلك أن اسم أى كاتب فى حد ذاته - وإذا وصل إلى أن يكون علامة مميزة - «طاقة» أكثر منه «بطاقة»، بمعنى أنه «تجربة حافلة» وليس مجرد اسم ثنائى أو ثلاثى مطبوع على رقعة صغيرة من الورق الأبيض المقوى.

وأعترف أننى فى جزء مما قصدت إليه فى هذه المقدمة تمنيت مشاركة أصدقاء آخرين - وكثيرين- فى الحفاوة بمحمد عودة، مذكرا بأننا أمام كاتب أخذ من تقدير الناس كثيرا، لكنه للإنصاف يستحق أكثر، وأظننا فى هذه المسافة بين ما أخذه «محمد عودة» وبين ما كان يستحقه، نجد أنفسنا أمام مساحة - هى ذاتها قضية المفكر فى زماننا. لأن أى مفكر فى عصرنا - وربما فى كل عصر - حوار متواصل بين الثابت والمتغير، ذلك أنه لايوجد مفكر يستحق هذا الوصف دون أن يكون له موقف، وفى نفس اللحظة فإن المتغير فى عصرنا- وفى كل عصر - متأثر بإيقاع زمانه وسرعة خطاه.

وعندما يصبح اتصال المتغير بغير فواصل تقطعه، وحين تصبح خطاه خرقا لعمق الفضاء بالصواريخ ، فإن مهمة المفكر تتحول إلى حيرة- بل وإلى درجة من العذاب.

وهكذا فإن «محمد عودة» يبدو أمام قرائه مفكرا كبيرا له فى الثابت موقفا جديرا بالاحترام، وفى نفس الوقت فإنه فى المتغير يظهر لهم حائرا كبيرا أيضا وإلى درجة جديرة بالإعجاب، لأنه كرجل مهتم ومتابع يريد أن يصل بقارئه إلى نتيجة نهائية أو شبه نهائية يقدمها له ، والمشكلة عنده أن الثابت واضح وراسخ، ولكن المتغير يشده إلى سباق لانهاية لمسافته.

وهنا موضع الحيرة عند «محمد عودة» وأمثاله من المفكرين ، ذلك أنهم وهم يقصدون إلى «صفاء الرؤية» حين يكتبون - يؤثرون الانتظار حتى يتبدى لهم «مجال الحقيقة» فيما يبحثون عنه، كما أن مواقع استكشافهم للحقيقة تنتقل من مكان إلى مكان، وكذلك تطول عندهم فترات الصمت حتى لتبدو أحيانا نوعا من الانقطاع !

على أن تلك المحاولات - وفيها الانتقال بالمكان وفيها الغيبة وهى أحيانا تطول - تجعل كل ظهور جديد مناسبة تستحق الحفاوة، لأنها عرض لـ : «طاقة» وليس تقديم «بطاقة» !

وبهذا المعنى تجيىء هذه الكلمات لتقديم هذا الكتاب لهذا المفكر الكبير موقفا ثابتا يستحق الاحترام - وحيرة باحثة فى الآفاق تستدعى الإعجاب !

نهاية فرعون
قصر الدوبارة

تأكد الخبر اليقين وأعلن فى لندن والقاهرة خلع الفرعون قيصر قصر الدوبارة ونائب الملك والامبراطور وحاكم النيل المطلق من المنبع إلى المصب وصدر الإعلان فجأة وبعد أن كاد اليأس يغلب على المصريين الذين توقعوه وانتظروه طوال العام.

واجتاح البلاد طوفان من الفرح والنشوة وانقضت الصحف الوطنية فى حملة ضارية والتشفى وتصفية الحساب الدامى .

وكان فخامة اللورد قد عاد من الاجازة بنفس غطرسته وصلفه وهزأ بكل مازاع وشاع فى الصحف المصرية والبريطانية من أنه ذاهب وتقرر اعفاؤه وأكد أنه باق ما بقى الاحتلال وما بقيت الامبراطورية ، وهى باقية إلى ما شاء الله وكرر مقولاته وأنه لم يأت لمصر حاكما ولكن ليحمل رسالة الامبراطورية نحو الشعوب المتخلفة والمقهورة ، وأكد فخامته

موقفه من دنشواى ونصح المصريين أن يستخلصوا العظة وكان قد صرح فى لندن قبل عودته .. كانت هناك ثورة دامية يعدون لها منذ بعض الوقت ولو لم تقمع فى دنشواى لأريقت الدماء وعصفت بكل ما حققناه فى مصر بل وامتدت إلى الشرق عامة وأن على الدول المسيحية ذات المصالح الكبيرة فى الشرق أن تدرك هذه الحقيقة والتى تتأكد يوما بعد يوم أن التعصب الدينى يتفاقم والدعوة إلى الثورة تسرى وتمتد والفوضى تزحف تحت الأرض بل وتصعد فوق الأرصفة .

وتضاءلت الآمال التى انتعشت بين المصريين والتى عززها صدور كتاب أثار جدلا واسعا فى بريطانيا وفى مصر بعنوان «مستقبل مصر» بقلم إدوارد دايسى ، وكان عميد الكتاب الاستعماريين وكان أول من دعا بريطانيا إلى التعجيل باحتلال مصر بعد هزيمة فرنسا الساحقة فى حرب السبعين وكانت الدعوة لاحتلال مصر هدفا رئيسيا لادوارد دايسى وأن الامبراطورية البريطانية لن تأمن بغير ضم مصر وكان أسعد الناس بالاحتلال ، وقد انتهى إدوارد دايسى فى كتابه الجديد إلى أن عمر كرومر الافتراضى قد انتهى وأنه تجاوز أهليته وصلاحيته وأنه مهما كانت مآثره التى لاتنكر إلا أن مصر فى

حاجة إلى قنصل جديد أكثر شبابا وحيوية وأقل صرامة وجهامة ويستطيع التفاهم مع الأجيال الجديدة والتى يمثلها الخديو .

وترجمت جريدة المؤيد فى مصر فصولا من الكتاب وأثارت تفاؤل المصريين ولكن لم يلبث فخامته أن عاد وهزأ بالكتاب ومؤلفه ووصفه بأنه هراء وفجأة أعلن النبأ وسقطت عن الامبراطور كل الأردية المزركشة وبدا عاريا قبيحا وكريها! وكانت الفرحة طاغية وأشفق عليه فقيه السلطان الأول وفيلسوف الولاء أحمد لطفى السيد وكتب فى الجريدة :

« رحماكم يا أرباب الأقلام لا تغرروا بهذه الأمة التعيسة وبينوا لها الفرق بين مواطن الانتقام ومواطن التكريم ولا تكون الأقلام فى أيديكم كالمعاول تهدمون بها بناء الأخلاق أو كالحجب تستر وراءها ضياء الحق أو كالسهام تهلهل بها أعراض الأشخاص .

وكرر دعوته الدائمة للمصريين أن سياسة المعاندة عقيمة وكيف يقبل المعاند من المعاند حسابا على أعماله بل كيف يرجو العدو من العدو إصلاحا لحاله أما والله ونحن على هذا المذهب لا يمكننا أن نتقدم فى مدارج الرقى الأدبى

والسياسي شبرا ما دمنا على ما نرى من التقاطع وسوء التفاهم ولا يبقى لنا إلا سياسة المسألة والمحاسنة المقارنة بالمحاسبة .

ولم يكترث به أحد وضاع صوته وسط الحملة التي شنت وأصرت على تصفية حساب ربع قرن عصيب ولم تؤيد الجريدة غير صحيفة ، «المقطم» لسان حال الاحتلال وكتبت :

يقولون إن اللورد خرج من القطر مكرها وأن الاستعفاء كان لأسباب سياسية بئس القول وهذا مالا يحتاج فى تفنيده إلى أكثر من الاستشهاد بكلام سمو الأمير وعطوفة رئيس النظار وأكابر القطر ووزير خارجية القاهرة وصحف أوروبا وأمريكا هؤلاء أجمعوا على أن الأسباب صحية لاغير .

اشتد حنق الجريدة الغراء حين استمرت الحملة وتصاعدت وكتبت تهاجم الشامتين والمغرضين .

إن الذين خلعوا رداء الحياء وكانوا يشيعون أن فخامة اللورد عزل سوف يلقون الخزى والتكذيب حين يتبين لهم أنه لم يستعف إلا لأن صحته اقتضت الراحة التامة ذلك ولأن ذمته لم تطاوعه على بقاء مصالح هذا القطر تحت رعاية رجل لاتمكنه صحته من السهر عليها ، وسوف يزداد هذا التكذيب

وضوحا إذا كان ثمة محل لزيادة الظهور والايضاح مما سيأتينا من أنباء الاحتفاء بفخامته عند الوصول إلى بلاده وما ستظهره دولته له من الاجلال والاكرام الذى لا يقابل بمثله إلا أعظم الأنام حتى تغدو مظاهر الأبهة والتعظيم التى ودع بها فخامته هنا ذرية وصغيرة .

وقرر فخامة اللورد إزاء اشتداد الحملة أن يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه وأن يروى الحقيقة ونسج قصة رومانسية حزينة وحملها إلى رجل يصدق كل ما يقوله اللورد وهو عطوفة رئيس النظار مصطفى باشا فهمى وروى متهدجا :

أعيانى التعب وضعفت صحتى من وطأة العمل ولم أعد أنام الليل إلا قليلا وكنت أنام كثيرا ثم أصابنى الغم والكدر الشديد بعد وفاة زوجتى ولما تزوجت للمرة الثانية خف عنى بعض الحزن ولكن استمرت صحتى فى الضعف ومع ذلك كنت تعافيت فى الصيف الماضى ورجعت فى شهر أكتوبر ولكن ما لبثت أن أحسست بوطأة المرض ثانية وأنها تزداد وتشتد وتصادف أن جاء إلى مصر طبيب شهير هو الدكتور ماكنزى وما أن فحصنى حتى أنذرنى بالخطر وألا مناص من أن أستريح وأعتزل وقال لى إن للطبيعة أحكاما صارمة ولا

ينبغى مخالفتها . وكتبت بذلك إلى وزير الخارجية جراى وطلبت الاحالة إلى التقاعد ورد علىَّ بأنه اتفق مع رئيس الوزراء على أن أعمل ثلاثة أشهر فى القاهرة والباقى فى لندن ولكنى اعتذرت وأن ضميرى لن يطاوعنى وبعد اضرارى طلب إلىَّ أن أرشح من يمكن أن يخلفنى ويستكمل ما حققته ولم أجد أفضل من الدون جورست وقد كان ساعدى الأيمن وتلميذى .

وكما روى الباشا .. انهمرت دموعى وقلت ماذا تفعل مصر بدونك ، ولن أبقى فى المنصب بعدك .. وسوف استعفى أيضا .. ولكنه هدأ من روعى وقال يجب أن تنتظر جورست تلميذى .. وسوف لا يجد أفضل منك لتعاونه .

ويبدو أن اللورد لم يكن واثقا تماما من قدرة الباشا على إشاعة القصة وحمل الناس على تصديقها .. ولهذا قرر أن يحملها إلى صديق آخر يثق فى قدرته وهو ناظر المعارف سعد باشا زغلول وكانت علاقتهما طيبة ووطيدة وهو الذى رشحه واختاره للوزارة ، وكان سعد مختلفا ولم يكن ينقصه الذكاء أو الدهاء قد استمع إلى القصة متأثرا ولكن خلال الحديث قال اللورد عرضا .

وعلى أى حال لم أعد استطيع أن أرضى الجميع ، واستنتج الباشا بحنكته أنه ربما تكون قصة الصحة حقيقية ولكن لاشك أن السياسة كانت الحاسمة .

واختلف الأمر تماما فى زيارته للخديو للوداع .

كان فى كامل صحته وغطرسته وقال له بجفاء معهود :

جئت لآخر مرة وقد لا نتقابل بعد ذلك والآن أريد ألا أخفى عليك شيئا وأقول بصراحة إن العلاقات الشخصية بينى وبينك كانت طوال المدة التى أقمتها حسنة أما العلاقات السياسية فكانت سيئة خاصة فى السنوات الأخيرة فإنك اندفعت فى تيار اللواء والمؤيد وفى طلب الدستور والمجلس النيابى الذى لايجدى أو يفيد والذى يمكن بل سوف ينقلب ضدك . وهل تدرك أنك تلعب بالنار إننى أنصحك أن تتشجع وتخرج من هذا المأزق الذى اندفعت اليه بنفسك لابد وأن تتخلى عن هذه الأمور حتى لاتتعرض الخديوية نفسها للخطر . وتأكد أنه إذا ما اضطربت الأحوال فى مصر سوف تستخدم بريطانيا القوة وسوف تكون كارثة كبرى .. إن أغلب المصريين خاصة المسيحيين فى استياء تام مما يحدث ولا أدرى ما الذى دفعك إلى إجراء الحديث مع مراسل الصحف الفرنسية وطالبت فيه

بالدستور والمجلس النيابى ..

وأمامك الآن فرصة ثمينة مع خليفتى ويمكنك أن تغير سياستك حتى لاتكون سببا لالحاق الضرر بشخصك وعائلتك وللأسرة الخديوية كلها .

كان انذارا وتهديدا ولم يكن وداعا ولم تنقص الخديو الجرأة هذه المرة ورد قائلا :

إذا كنت تعنى بكلمة عائلتى أولادى فأنا والحمد لله عندى ما يكفينى ويكفيهم أما إذا كنت تقصد الأمراء الآخرين فأنت قد شجعتهم ضدى وعينت منهم أوصياء على أبناء العائلة دون علمى ولم أعلمه إلا من الصحف .. ومن جهة سياستى فأنا أعلمتكم دائما إننى لا أريد الضرر لبلادى وأنى ابتعد عما يجلب لها أى ضرر وفى خلال الخمسة عشر عاما من حكمى كانت الصرامة والاستقامة مبادئى وكنت اجتهد فى تسهيل مهمتك وأنا أسف على نسيانك للخدمات التى قمت بها لك واستغرب من وصول كل إشاعة سيئة إلى أذنك وعدم وصول أى شىء من المساعى الحميدة التى كنت أقوم بها .

وانتهت المقابلة العاصفة وقال الخديو للحاشية كان فظا سفيها لاقصى حد أسفر عن أحقاده وإصراره على الانتقام

والتشفى وأنني خصم لم ينل بغيته منه ويريد تهديده وتهديد مركزه .

ولم يهدأ الخديو إلا فى المساء حين جاء المعتمد الجديد الدون جورست لزيارته وكان يأتى دائما بعد مقابلات اللورد، ويقوم بدور الجزرة التى تخفف وطأة العصا الغليظة وكان يتكاملان فى خدمة الامبراطورية .

وكانت الزيارة هذه المرة بداية «ربيع» جديد فى العلاقة ولهذا انتهت بخطاب للخديو : إننى اعتبر اختيارك للمنصب ياسيرألدون لفتة طيبة وترضية لى من جلالة الملك وحكومته حيث اختار رجلا أعرفه وعملت معه وهو صديق لى وآمل ياسيرألدون أن تكون فى المستقبل بنفس الرجل الذى عرفته فى الماضى ولاشك إن إجادتك للغة العربية ومعرفتك الوثيقة بمصر ورجالها سوف تكون أفضل عون لك على التعاون وإننى لا أريد غير خدمة بلادى بصدق ولا أعرف غير الحق ولتكن وجهتنا واحدة وهى العمل لمصلحة مصر .

وكان الخديو يعرف مقدما وقبل الإعلان عن عزل كرومر ومن ذلك استمد قوته فى الرد وكان للخديو رجاله فى لندن يوافونه بالأسرار والأخبار وكان ذلك عملا بنصيحة تلقاها من حاشية السلطان خلال زيارته لاسطنبول وقال التقرير ..

يدرك الانجليز أن نفوذهم الذى عمل اللورد كرومر على تقويته وتدعيمه منذ تعيينه قد بدء يتضاءل ويضعف على يد كرومر نفسه بسبب أخطائه الأخيرة لاسيما فيما يختص بحادثة دنشواى التى صدعت من هيبتهم فى نظر أوروبا كلها لما أحدثته هذه السياسة الغاشمة من رد الفعل وتقوية النزعة الوطنية وتنبه الأفكار بين عامة الشعب ورأت إنجلترا أن تضحى بفرد هو اللورد كرومر على أن تضحى بمصالحها العامة وقررت تعيين السير الدون جورست معتمدا بريطانيا خلفا له ووضعت له سياسة جديدة تقوم على اجتذاب الخديو إلى جانب انجلترا واستمالة الأحزاب الوطنية التى تتمخض عن الظهور .

وهكذا اطمأن الخديو وعلى الضفة الأخرى بدأ الإعداد للاحتفال وبوداع فخامة اللورد وأوكلت رئاسة اللجنة التى تكونت من المستمر كوريت المستشار المالى وكان أول ما طلبه وأبلغ به القصر أن يشهد الخديو الاحتفال وأنه لابد أن يشهده وإلا فإن اللورد سوف يتحدث عن الخديو إسماعيل والخديو توفيق ولا يشير إلى سموه بشىء ، بل سوف ينتقد ما حدث فى الأوقاف والأزهر والمحاكم الشرعية والألقاب. ولم يكترث الخديو للابتزاز وأكد الاعتذار وقامت اللجنة بتكليف

المفتشين والمديرين وكبار الموظفين في الريف بحشد الأعيان والعمد في وفود تتدفق على القاهرة وأن تضم بينها وفود فلاحين من لابسي الجلاليب الزرقاء الذين وهب اللورد حياته وجهده في انتشالهم من القاع .

وألقى على النظام مسئولية إقامة حفلات الوداع الرسمية واستندت الحملة المضادة وكتب لطفي السيد يلوم ويحذر ما بال بعض الجرائد تشهر ببعض الكبراء الذين انضموا إلى لجنة الاحتفال وتغمزهم كل يوم بضروب من ألفاظ السخرية غير اللائقة ضد لجنة الاحتفال أو من يحضر الاحتفال وهي لم تخدم الحقيقة فيما اسندته إلى النظار من أنهم يطوفون بيوت الأعيان فيحملونهم على الاشتراك بوداع اللورد كرومر والوزراء يكذبون ذلك علنا على صفحات الجرائد ويتبرأون من أنهم يحملون أحدا على غير ما يريد .

أخبرنا أحد الوزراء وقد كنا سألناه عن الخبر الذي أجمعت عليه الجرائد في يوم واحد وأنه يقوم بالدعوة فأكد لنا أن الخبر عار من الصحة وأنه لم يخاطب أحدا من الناس في هذا الصدد ثم قال وإني مع ذلك لا أرى مانعا في نظر المروءة وحسن الأخلاق ولا في عرف الوطنية يمنع أحد الوزراء من أن

ينبه غيره إلي أداء الواجب وشدد لطفي السيد التنديد على المعارضين يجب أن نعرف أن لليوم غدا وأن هذا الأمر له ما بعده وأن قاعدة سياستنا مع المحتلين هي المحاسنة دون المعاداة وأن معاداة القوى بوار ونقص في العلم بالمصلحة وأن المظاهرة ضد لورد كرومر ظهور بالعداء ونكران للجميل في وجه الأمة المحتلة من غير جدوى وبذلك يكون الواجب إلا نمتعض من الاحتفال بوداع لورد كرومر وأن نقوم له بالمجاملة السياسية الواجبة بين الامتين المرتبطتين اقتداء بسمو الأمير ، وليطرح كل مسئول تهديد الصحف ووعيدها ولا يسمع إلا ما يمليه عليه وجدانه دون ما يكرهه عليه غيره فإن الحرية فى القول والعمل أغلى من أن تباع بالبقاء فكيف تباع بالترغيب فى خبر أو بالأمن من تهديد ، وتصاعدت الحملة من جهة واستبسل القائمون بالدعوة وتنظيم الاحتفال من الجهة الأخرى .

توجه مصطفى باشا فهمى رئيس النظار وقابل البرنس حسين كامل باشا واجتهد فى اقناعه بقبول الحضور .

واجتهد وكيل البنك الأهلي في الاسكندرية وهو انجليزى فى ضم الوطنيين للاحتفال باللورد فلم ينجح فهدد بعدم

مساعدتهم وقت اللزوم وقال لكامل بك تيمور أنت رجل مالى ولك أشغال كبيرة وتحتاج إلى المال فإذا لم تنضم للاحتفال فإننا نحن أيضا سنمنع عنك المال حين احتياجك إليه .

ومع هذا التهديد فقد رفض الحضور . وأرسل المستشار المالى خطابا لرياض باشا يطلب منه الاشتراك فى الحفلة وإلقاء كلمة ولكنه وافق على الحضور واعتذر عن الخطابة .

وجاء واطسون باشا يدعو رئيس الديوان الخديو فاعتذر بأنه سوف يكون بالاسكندرية يوم الاحتفال واعتذر نائبه بأنه لايعرف الفرنسية التى ستلقى بها الخطب . ورفض يوسف وضياء باشا الحضور وقال «لا وقت لدى للذهاب إلى الأوبرا»..

وكان قاسم أمين معاديا للحزب الوطنى ومتعاطفا مع الاحتلال ولكنه رفض حينما طلب إليه صديقه الحميم سعد زغلول أن يرافقه فى الحضور وكان الواقع أليما على اللورد وكان فخامته يعيش بأوهامه ولا يصدق سواها وكان يحلم بوداع اسطورى كما حدث للسير جريجورى توماس حاكم سيلان والذى ما إن أصدرت جلالة الملكة المرسوم بنقله من منصبه وترقيته عضوا فى مجلس الملكة الخاص حتى خرجت

الجزيرة قاطبة احتجاجا على القرار وأعلنوا العصيان المدنى ولم تملك جلالة الملكة الامبراطورة إلا الاستجابة وكان حدثا فى تاريخ الامبراطورية وكان السير جريجورى توماس من أشد المتعاطفين مع مصر وكان صديقا حميما لعرابى باشا وقادة الثورة وكان يرى فى الثورة العرابية النموذج الصحيح لصحوة الشرق عامة وكتب كثيرا فى الصحف البريطانية وندد بالطاقم الاستعمارى فى القاهرة ، وإنهم يقودون الموقف إلى كارثة وبعد هزيمة الثورة يتصدر السير جريجورى مع راندولف تشرشل ، ويلفريد سكاون والجنرال جوردون لجنة الدفاع عن العرابيين وضمان محاكمة علنية عادلة وحدث ذلك واستبدل حكم الإعدام بالنفى إلى جزيرة سيلان حيث عوملوا أكرم معاملة !

ولم يكن لطموح اللورد حدود وكما قال خلصاؤه كان يساوره الأمل بأن يبحر من القاهرة شرقا إلى نيودلهى وإلى المنصب الذى يحلم به كل حكام الامبراطورية الكبار وهو نائب الملك فى الهند ، وقد احتله استاذه دوفرين ومن الطبيعى أن يخلفه وقد بدأ حياته السياسية سكرتيرا لابن عمه نائب الملكة قبل انتدابه فى القاهرة وخابت الآمال جميعا وتقلصت إلى حدود مصر .

وأسر فخامته إلى منظمي الاحتفال أنه يود أن يكون له تمثالين في القاهرة وفي الاسكندرية وكان هناك هوس لدى حكام الامبراطورية بالتماثيل وكانت عواصم الامبراطورية ومدنها الكبرى تزخر بتماثيل الحكام السابقين . في آسيا وأوربا واستراليا فضلا عن المدارس والمعاهد والمستشفيات بأسمائهم وأسماء زوجاتهم وكان هناك مستشفى في مصر باسم الليدى كرومر الأولى ، وتقرر إقامة مستشفى للزوجة الثانية للعناية بالحيوان ..!!

وقررت لجنة الاحتفالات أن تبدأ جمع الاكتتابات لتحقيق رغبة اللورد .. ولم يخالجها شك أنها سوف تنهال خاصة من الجاليات الأجنبية الواسعة الثراء والتي تدين لفخامة اللورد ، وكانت الجالية البريطانية أغناهم جميعا ورغم كل ما بذل من جهد لم تستطع اللجنة أن تجمع غير خمسة آلاف جنيه .. لا تكفي لإقامة حفلة وقد كانت غرفة التجارة البريطانية أقلهم تبرعا وبدا واضحا وربما لأول مرة أن هناك سخطا من نوع آخر في صفوف الإدارة البريطانية والجالية البريطانية بل تمزقا وانشقاقا تكشف فيما بعد في سيل المذكرات والوثائق وكان كرومر بحكم الوكالة البريطانية يدير شئونها كالثكنة

العسكرية ويخضع كل صغيرة وكبيرة لرأيه ولابد أن ينحني الجميع لإرادته ، ولم يكن يطيق أى اعتراض أو نقد أو رأى مخالف وكثيرا ما كان البعض ينسحب ويطلب نقله من مصر، وكان هناك أيضا من تحداه وألقى بالقفاز في وجهه !!

وكان من أشهرهم ويلكوكس المهندس الأول في خزان أسوان وقد انحاز منذ البداية للمصريين وتعلم العربية والعامية وانغمس في الحياة المصرية وكان مسيحيا متدينا ترجم الانجيل إلى اللغة العامية ولكنه لم يكن مبشرا أو معاديا للإسلام وعلى العكس ولذا كان كرومر يكرهه ويتجنبه..

وكان ويلكوكس لايخشاه أو يهابه بل يواجهه دائما ويندد بسياساته ويتهمه بأنه يزحم الإدارة البريطانية بموظفين وخبراء بريطانيين لا لزوم لهم يأخذون مرتبات باهظة لا يستحقونها وأن كل ما يفعلونه هو أنهم يقطعون الطريق على تقدم المصريين وحقهم في إدارة شئون بلادهم وكان شديد. الإعجاب بالعمال والمهندسين المصريين وأشتد الخلاف حتى قرر ويلكوكس ترك المنصب الرسمي والتحق بشركة هندسية حرة وأطلق لسانه اللاذع في نقد كرومر والتنديد به .

وكان الآخر والذى لا يقل وطأة هو «ألونزومونى» وكان يندد علنا بفخامة اللورد وأنه يقف عقبة أمام تقدم المصريين ومحور سياسته تحويل مصر إلى مقاطعة هندية يحكمها وحده وهذا مخالف لما تعهدت به بريطانيا من أن بقاءها مؤقت وينتهى بنهاية الشغب والتمرد العسكرى وكان يعلن بلا تردد أن المصريين على حق فى رفض اللورد وسياساته وحدث أن أدلى الونزومونى إلى جريدة فرنسية فى مصر بحديث صرح فيه بكل أرائه .. وعلى الفور طلب اللورد فصله وإعادته إلى لندن وهناك كتب كتابا ثأر فيه من كرومر فى مصر .

وكان أقرب المستشارين إليه «دنبو» وكان يرى أنه يقوم بأهم رسالة للوجود البريطانى وهى فرض اللغة الانجليزية والبروتستانية ولم يحفل بأنه كان أكره المستشارين على المصريين بل وعلى معظم زملائه البريطانيين وظل متمسكا به منحازا إليه حتى النهاية وكان الدون جورست مستشار الداخلية ثم المالية يحظى بنفس المكانة وكان يجيد العربية وعلى صلات واسعة بالمصريين ولكن كان زملاؤه يتهمونه بأنه ذيل لكرومر وتابع موافق دائما وأن كرومر تسامح فى إجادته للعربية واختلاطه بالمصريين ليكون عينا له ينقل له كل ما يدور

بينهم وكان كرومر لا يشجع رجاله على تعليم العربية أو على الاختلاط بالأهالى حفظا لهيبة النظام ، وكان هناك هارى بويل عينه على المجتمع السفلى ، ويجيد العامية وينغمس فى قاع المدينة .. وقد ترك كتابا عن حياته بعنوان «خادم الامبراطورية» .

وكان تشيتى مستشار الحقانية من أفضل المستشارين علما وأكثرهم احتراما وكان شديد الانحياز إلى المصريين وإعجابا بمواهبهم وتأييد لقضيتهم وهكذا تعثرت كل الجهود فى تحقيق رغبات اللورد وأرادت الاسكندرية أن تكفر عن تقصير القاهرة ، وقررت أن تنظم له البلدية وداعا تاريخيا حم الجميع ، ولكن اعترض أحمد يحيى باشا أبرز الأعضاء ميريين وانضم له المصريون .

وفى النهاية أجهز الحزب الوطنى على منظمى الاحتفال وأعلن محمد فريد فى بيان نشرته اللواء :

« كيف نحتفل بوداع رجل سخر كل جهده على مدى ربع قرن لكى يحول بلادنا إلى مستعمرة بريطانية ، إن هذا وصمة لأرواح شهدائنا فى دنشواى وضحاياها الذين مازالوا فى السجون » .

وكتب مصطفى كامل فى اللواء :

ماذا نذكر عن اللورد كرومر نذكر أنه الضارب لعرش الخديوية بيد من حديد وأنه الذى فتح السودان برجالنا وأموالنا ثم جردنا من كل حق وسلطة فيه فنذكر أنه الذى سلب الحكومة المصرية والوزارة المصرية كل وجود ونفوذ وحياة .. نذكر أنه الذى حرم الفقراء من التعليم فى مدارس الحكومة وحارب اللغة العربية ، نذكر أنه الذى قرب الذين يضحون بأشرف العواطف لخدمة المطامع الذاتية . نذكر أنه الذى رمى المصريين بكل جهل وتقصير وأعلن للملأ وجوب سيادة الانجليزى على المصرى ولو كان هذا رئيس ذاك نذكر أنه الطاعن على الدين الإسلامى فى تقريره الأخير ذلك الطعن الذى هاجت له عواطف المسيحيين مثل المسلمين نذكر أنه الذى عمل ما فى وسعه لمقاومة المطالب الوطنية بالمال وظن أن الثروة وحدها كافية لارضاء أمة وشراء ضمائر شعب نذكر لنوع خاص أنه الذى أراد الانتقام من شعور الناشئة المصرية فى حادثة اضراب الطلبة ورقى دنلوب مستشار المعارف وأراد الانتقام من عواطف الأمة فكان ما كان من دنشواى مما يذكره الخاص والعام نذكر أنه لم يكتف بذلك

كله بل تعمد أمام هذه الأمة وهى حزينة كئيبة على منكوبى دنشواى مكافأة من سلكوا فى هذه الحادثة المشئومة المسلك الذى يحبه جنابه وتنفر منه الأمة كلها .

نذكر أنه عمل ما عمل فى مصر ليجعلها مستعمرة إنجليزية إن لم يكن اسما ففعلا وأنه كان على خلاف مع أحرار الإنجليز الذين يرون فى مصادقة المصريين نفعا لإنجلترا أكبر وأسمى من معاداتهم وسلبهم حقوقهم .

وبنزاهة مصطفى كامل وبراعته أضاف :

هذا ما نذكره للورد كرومر ويذكره جميع المصريين ولكن نذكر له بكل أنصاف أنه لبث طوال حياته مثالا للنزاهة حتى يصح أن نضرب به الأمثال من هذه الوجهة لجميع الحكام وذوى السلطة ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الأرض بما فى قبضته من جاه ونفوذ ولكنه فضل الشرف الذاتى على المال وخيرا فعل .

وكتب السكرتير الشرقى رونالد ستورز إلى لندن : تتركز كل جهودنا على أن يغادر اللورد فى سلام ودون مظاهرات صاخبة تشيعه إلى الباخرة .

الحاكم بأمر الامبراطورية الذى نصب المشانق فى مصر..
اللورد كرومر:
انتشلت المصريين من بالوعة اليأس

كتبت الجريدة

ما أن حلت الساعة الخامسة والنصف حتى ازدحم الناس بالشرفات والقهوات المجاورة للأوبرا الخديوية واصطف البوليس أمام مدخلها وأخذت مركبات الكبراء والوجهاء تدرج بهم نحوها مثنى وثلاث فلم تقترب الساعة السادسة حتى امتلأت الواحا الأوبرا ومقاعدها ومرسحها الفسيح لكل ذى منصب ومقام من مصريين وأجانب ولا يسمح المقام أن نذكر كل عظيم ووجيه من الذين حضروا فنكتفى بذكر أصحاب الدولة البرنس حسين باشا كامل عم الجناب الخديو والبرنس عباس حليم باشا والبرنس سعيد حليم باشا كامل وعطوفة مصطفى فهمى باشا وسائر النظار وجميع اعضاء لجنة الاحتفال وأصحاب السعادة زكى باشا وواطسن باشا والسير ريجنالد باشا حاكم السودان العام والجنرال بلوك قائد جيش

الاحتلال وأكثر قناصل الدول الجنرالية وسعادة محمود باشا سليمان وكثير من أعضاء مجلس الشورى والأعيان وعدد من السيدات الأوروبيات وما حلت الساعة السادسة تماما حتى وصل جناب اللورد كـرومـر والسـيـر اليـدون جـورست وقريناتاهما وبعض السيدات الكرائم فدخلت الليدى كرومر والسـيـر الدون جـورست على صـدر المرسح حـيث اعـدت الكراسى الجميلة المذهبة فعزفت الموسيقى سلام ملك الانجليز فـوقف الحاضـرون كلهم وهتـفوا مرارا ترحيبا باللورد فـرد عليهم التحية باسم الثغر طلق المحيا ثم جلس على الكرسى الذى أعـد له فى صـدر المرسح وجلس إلي يمينه صـاحب العطوفة مصطفى باشا فهمى والكونت دى ساريون وسعادة بطرس باشا غالى بقربه وجلس إلى شماله جناب السير الدون جورست وعلى مقربة أصحاب السعادة السردار وسعد باشا زغلول وفخرى باشا ومظلوم باشا ووراءهم بقية أعضاء اللجنة وجملة من الوجهاء والأعيان والأدباء ولما استقر المقام بذلك الجمهور الخطير وقف جناب الكونت دى ساريون مدير شركة قنال السويس وألقي خطبة نيابة عن جميع النزلاء الأوربيين فى القطر. قال فيها:

أن جميع الذين يرتبطون برابطة الأسف البالغ لسفركم والاعتراف بالجميل من غير تمييز بين الملل والأجناس يريدون أن يوضحوا لكم على رءوس الملأ بما خامرهم من الاستياء لأن أسبابا صحية تحملكم على قطع سلسلة من الأعمال تتصل أشد الاتصال من نحو ثلاثين عاما بالبحث عن ضروب النجاح من كل نوع وباخراجها إلي حيز التنفيذ كما يشهد لكم اليوم نجاح القطر المصرى.

أيها السادة لا تنتظروا منى أن أعدد لكم هنا ما أداه اللورد كرومر لمصر من الأعمال التى أصبحت مما يدون فى التاريخ والتى جعلت وادى النيل من أكبر بلدان العالم تقدما وسعادة وربما كان أحسن البلدان ضيافة والفضل فيها يرجع إلى ما قدمه اللورد كرومر من النصائح الرشيدة التى مكنت الأجانب كما نعلم جميعاً من الاشتراك الكبير فى اسعاد البلاد تحت ظلال من الأمن والتسامح يصعب أن ترى لهما مثيلا فى جهة أخرى من الكرة الأرضية.

واسألكم السماح بأن اشير فقط اشارة مختصرة إلي نظام جديد متسع تركه جناب اللورد قبل اخراجه من حيز المشروع إلي حيز العمل.

ولا ريب يا جناب اللورد إنك تمج كلامى وتحمله على محمل التزلف مع أن التزلف لا ينطبق على اخلاصى فى الكلام إذا كنت أقول لجنابك أن جميع النزلاء الأوربيين يرجون كل الرجاء أن يتحقق مشروعك وكم تأثرنا جميعاً بلا استثناء من الاهتمام الذى أظهرته عند اعداد ذلك المشروع باستطلاع أراء العدد العظيم من الأوربيين وكم اشعرتموهم بأنكم تريدون أن تشتغلوا معهم فى تحسين حالتهم من الوجهتين المادية والأدبية.

ولتسمح لى يا جناب اللورد فى إظهار أسفنا واحترامنا باسم تلك التى ساعدت مساعدة كبيرة النضج بلطفها وشغفها التى لا تعادلها إلا ما إتصفت به أنت من الصفات الحازمة التى رفعت شأن مهمتك فى هذا القطر وأن اسم الليدى كرومر سيبقى فى ذاكرتنا صورة حية لطيبة النفس وسنتمثلها على الدوام منعطفة انعاطفا لطيفا إلى مواساة البؤساء وتخفيف الآلام عن نفوسهم.

وفى النهاية يستحيل علىَّ أن أعود إلى الجلوس بدون أن أظهر السرور الأسمى يجعل شرف تمثيل النزلاء الاوربيين لرجل فرنسوى ولمخاطبة رجل سياسى يعد فى المرتبة الأولى

من الذين ساعدوا مساعدة فعالة فى ابرام الاتفاق الودى.
ودوى التصفيق وجلس الكونت ولم يلبث أن وقف اللورد ورد فى كلمة قصيرة بالفرنسية.

كنت أقول فى نفسى دائماً إن أول واجب علىَّ هو فعل كل ما يلزم فعلا فى الدفاع عن مصالح بلادى ومصلحة مصر ووضعت بريطانيا العظمى ومصر فى كفة واحدة لأنى لا اعتبر كلا منهما على حدة اذ كل من يدرك حقيقة مصالحهما يجدها مصالح واحدة على أنى علاوة على كونى انجليزيا.. وعلى الاصح انجليزيا مصريا لم أنس قط أنى أوروبى أيضاً وأن رغد عيش الجاليات الأوروبية العديدة المهمة النازلة فى هذا القطر يعد مصلحة مصرية وبالتالى مصلحة بريطانية من الطبقة الأولى وأنا أغادر مصر مقتنعاً بصحة هذه القضية كل الاقتناع وإذا سنحت فرصة أو اقتضت ضرورة لن أتغاضى عن الدفاع عنها وأشكركم من صميم فؤادى وسأتشرف بعد قليل بمخاطبتكم باللغة الانجليزية ودوى التصفيق ووقف عطوفة مصطفى باشا فهمى رئيس مجلس النظار وألقى خطبة جاء فيها.

يا جناب اللورد:

بلسان الحكومة وبلسان السواد الأعظم من الأمة المصرية أبدى لجنابكم شعائر الأسف الأكيد على مفارقتكم هذه الديار أسف تتزايد شدته على الخصوص لعلمنا أن الباعث الذى أوجب هذا الرحيل هو اعتلال صحتكم التى ضحبتموها باحتمال المشاق ومواصلة الأتعاب فى سبيل القيام بما فرضه عليكم حبكم لهذه البلاد وتفانيكم فى المساعدة على توطيد قواعد الثروة فيها بلا ملل ولا انقطاع عن العمل ولن تنسى مصر أن حسن الحال الذى وصلت إليه والذى استوجب الاعجاب العام هو نتيجة ارشاداتكم السديدة ومؤازرتكم الأكيدة.

نعم أن التاريخ خير كفيل بتسجيل هذه المآثر وقدرها من الاكبار والاجلال ولى كلمة أقولها الآن بوجه الاجمال وهى أن الفلاح المصرى قد جنى ثمرات هذا الإصلاح وأحس بنعمة هذا الإسعاد ماديا وأدبيا أكثر من كل إنسان سواه.. هذا العمل المجيد سيخلد اسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما إنه يدعوها فى مستقبل الأيام إلي الاعتراف لكم بهذا الجميل وإنى لأعرب أيضاً عن اسفنا لمفارقة الليدى كرومر التى استأثرت قلوب البائسين بحنانها وإحسانها وخففت مصابهم

بحسن مواساتها فاستحقت بهذا الصنيع شكر الخاص والعام وصفق الحضور طويلا.

ووقف فخامة اللورد وسط تصفيق طويل وهتاف ووقوف عدد كبير والقى خطابه.. الأخير في وداع مصر والمصريين.. قال فيه أرى قبل التكلم في أمور أخرى أن أقول كلاما قليلا عن الاشارات اللطيفة والعبارات الرقيقة عن السيدة التى هي معينى في حياتى وقد وقعت أقوالهما وقعا سديدا فى نفسى ولا شك أنها وقعت كذلك فى نفسها كان من أقرب الأمور إلى قلب الليدى الاشتراك مع غيرها من السيدات المحسنات في تقليل وفيات الأطفال.

وأود أن أقول كلمة أو كلمتين عن شخص أرى أن الناس لم يعطوه حقه ولا انصفوه وأريد به المغفور له سمو الخديو توفيق باشا والذي كان يعرف بلاده أيضاً حق المعرفة والتاريخ يكون ظالما إن لم يجعل لتوفيق باشا مقاما ذا شأن بين الغابرين من الملوك والامراء الشرقيين.

وماذا أقول عن عطوفة مصطفى باشا فأولا أقول إنه من أعظم الذين التقيت بهم فى حياتى لطفا واكرمهم أخلاقا وأحسنهم مناقبا.

(هتاف شديد وتصفيق حاد) وذلك بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لا يعنيه واذكر أخيراً أيها السادة اسم رجل لم اشتغل معه إلا من عهد قريب ولكن معاشرتي القصيرة له قد علمتني أن احترمه احتراما عظيما وإن أصاب ظني ولم يخطئ كثيرا فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد سعادة سعد باشا زغلول مستقبل عظيم للمنفعة العمومية.

(تصفيق حاد طويل) لأنه حاز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده فهو صادق مستقيم كفء مقتدر شجاع فيما هو مقتنع به وقد احتمل الطعن والذم من كثيرين وهذه صفات سامية فالواجب أن صاحبها يتقدم كثيراً.

وقال: (يقول لي قوم كثيرون إن المصريين بوجه الاجمال لا يعترفون كثيرا بالجميل وبالمنافع والفوائد التي لا شك في أنها منحت لهم واجبت على ذلك أني لا أعرف ما يشعر به المصريون من هذا القبيل ولكن فيلسوفا فرنسيا قال قولا وأورد معناه قال إذا قاس شعب آلام الظلم والقهر طويلا لم يكد يبقى له طاقة على شكر الذين يخلصونه منها.

ولا ريب أن أهل مصر قاسوا كثيراً فى الماضى ولكنى لا يمكن أن أصدق أن المصريين أو أفضلهم على كل حال يفكرون أن يد التمدن الغربى التى كانت تستعملها القاهرة لأداء عملها فى الخمس وعشرين سنة الماضية هى التى انتشلتهم من بالوعة اليأس بعد ما ألقاهم الدهر فيها وإذا ما اقتنعت وما أنا مقتنع مطلقا أن أبناء الجيل الحاضر لا يعترفون بهذه الحقيقة الجيليلة فإنى أؤمل مع ذلك أن أبناءهم سوف يعترفون بها إذا المعتاد أن أولاد العميان يولدون مبصرين.

وقال:

أيها السادة كيف يقال أن مصر لم ترتق أدبيا هل الحكم فيها اليوم للكرباج وحده هل السخرة باقية منها هل لعنة الرق لاتزال حالة عليها ولم تنزل منها، أليس كل شخص فيها من الأمير إلي الصعلوك الحقير أمام القانون سواء. ليس من الحقائق المقررة أن العدالة لا تشترى وتباع اليوم وأن كل إنسان حر بل ربما حر أكثر مما يجب أن يكون فى المجاهرة بأراءه والتعبير عنها وأن سلطان التفتيش قد سقط عرشه وعزل عن مقاماته لقد سمعت فى هذه الأيام لغطا يتكرر كثيرا

عن أن حكومة مصر مستبدة ظالمة ولا يهمنى هذا الكلام لأننى أفرغت جهدى مدة خدمتى فى مصر فى بث روح الحرية فى نظام حكومة بيروقراطية ولم أدخر وسعا فى الاطلاع على حقيقة الرأى العام سواء كان محليا أو أوروبيا واعطائه حقه من الاعتبار والاحترام، وحسبى أن أترك لغيرى الحكم فى مقدار نجاحى فى هذا القبيل انظروا إلى التعليم الابتدائى فإن النظام الذي كان متبعا قبل الاحتلال البريطانى لم يكن يصلح لشئ ثم تغير ذلك تغيراً عظيما وها هى الكتاتيب تنشأ فى كل جهة من جهات القطر بعناية كثيرين من أعيان البلاد المستنيرين وهناك حركة أخرى تستحق الذكر لتعليم الصنائع للأهلين أما تعليم العلوم العالية أعنى به الحقوق والطب والهندسة وما شاكل فالتقدم فيها مستمر مضطرد من أعوام وأنا واثق أن المعارف ستتقدم وترتقي سريعا وعلى يد ناظر المعارف الحالى سعد زغلول وجناب المستر دانلوب مستشاره الحالي وانظروا إلي تعليم البنات فهل يظن أنه يمكن لهذه البلاد أن تتشرب روح التمدن الحقيقى ما دام مقام المرأة غير معتبر.. ولم يكن أحد يهتم بهذه المسألة غير صديقى سعادة يعقوب ارتين باشا وعزة قاسم بك أمين وأخرين قليلين.

قرأت حديث جرى لسمو الخديو مع مكاتب إحدى الجرائد الفرنساوية وقال سموه حان لنا أن نبذل جهدنا وليس فى خير الأهالى المادى فقط بل فى سد حاجاتهم العقلية والأدبية أيضاً وأنا لا يهمنى أكثر مما يهمنى هذا الأمر وأنا أرحب بأقوال سموه هذه من صميم فؤادى وأقول أن سموه خصوصا بقدر أن يرقى بشعبه كثيراً من الجهة الأدبية فهو يستطيع أن يبطل فضائح ديوان الأوقاف المفسدة لهذه البلاد أى أفساد ويستطيع أن يظهر لأهل دينه أنه يمكن إصلاح المحاكم الشرعية من غير أن يهز أركان الاسلام ويستطيع أن يحبط أعمال المدبرين من ذوى الأغراض الخصوصية وغير المسئولين الذين يتجمعون حول كل عرش شرقى ويكون نفوذهم مضرا بالآداب العمومية ويستطيع استخدام نفوذه العظيم لتشجيع المصلحين الحقيقيين الذين يريدون الخير لبلادهم من صميم أفئدتهم ولو فعل سموه هذه الأمور كما أؤمل كسب الشكر والاحترام من كل طبقة من طبقات الأمة.

ان أسعد يوم من أيام خدمتى كان يوم ٦ ابريل سنة ١٩٠٤م الذى وقع فيه الاتفاق الفرنسوى ولست أدعى أنى كنت من أشهر واضعى هذا الاتفاق بل اعترف أن الفضل فى

عقده كان لارباب السياسة المتولين زمام الأمور الخارجية يومئذ فى باريس ولندن.

إن هذا الاتفاق مبنى على اشتراك الفريقين فى المصلحة وعلى قرب الجوار وتشابه الثقافات السياسية واحترام كل فريق للآخر احتراما ناتجا عن تلاقيهما فى ساحات الوغى كثيراً واقتتالهما فيه شديدا وعلى كون خصائص كل منهما وصفاته مكملة لخصائص الآخر وصفاته وزيادة على ذلك كله أنه ليس فى هذا الاتفاق تهديد لأحد وانما هو صادر عن رغبة الفريقين فى السلام فى العالم وإذا كان فى العالم امتان تقضى عليهما الاحوال والظروف أن تتصادقا فانما هما أمتا فرنسا وانجلترا. ولما أتيت مصر سنة ١٨٨٣ عقدت نيتى على سد هذه الثغرة وعلاج هذه القرحة.. وقد ظلت الجرائد الفرنسوية زمانا تذكر اسمى منعوتا بنعوت الذم وأكثرها كان يلقبنى كرومر المتوحش وقد شبهنى مرة بأعظم الهة الوثنيين حبا لشرب الدماء «مولوك» ولكن مداعبات الجرائد هذه كالتوابل تكسب الحياة السياسية رونقا ونكهة فلا يجمل بالإنسان أن يحفل بها كثيراً. وقد تغيرت لهجة الجرائد الفرنسوية وتلقبنى هذه الأيام بالشيخ الجليل.

وقال إن كان ما قلته كان عن الماضى فإذا تكرمتم على الاصغاء فأنى أقول شيئاً عن المستقبل ما هى حقيقة الحال المصرية الآن؟

أولا: أن الاحتلال البريطانى باق إلى ما شاء الله.. وقد قالت لنا حكومة جلالة الملك ذلك رسميا. وثانيا أنه ما دام الاحتلال باقيا فإن الحكومة البريطانية بالضرورة مسئولة عن الخطة التى تجرى عليها الادارة المصرية لا تفصيلا بل اجمالا ولا يكون عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثابتة والنتيجة التى استنتجها من هاتين المقدمتين أن نظام الحكومة الحالى دائم رغما عما يعتريه من العيوب والشواذ الكثيرة التى لا يعترف بها أحد أكثر منى وأظن أنه ليس فى الناس من هو أقدر على ضمان الدوام لهذا النظام من جناب السير الدون جورست خلفى المقتدر البارع كلكم تعرفون مقدرة السير الدون جورست ونواياه فلا حاجة بى إلي اطالة الكلام فى شرح أوصافه الجليلة وإنما أقول أنى سررت أعظم سرور بتعيينه فى مكانى لأن الصداقة بينى وبينه عظيمة ولأن ثقتى به تامة ثم أنى أرى من أقوال الجرائد الأوروبية والمحلية أنها تشير على السير الدون جورست باتباع ما تسميه سياستى.

وأحب أن أوضح ماذا كانت سياستى هذه ويكفى لايضاحها كلمات قليلة وهى أن سياستى كانت قول الحق وانا عالم أن السير الدون جورست يجرى على هذه السياسة ولا ريب عندى أنه يجد فى القيام بواجباته الشاقة من أبناء بلاده وغيرهم من التأييد الخالص الفعال ما كنت أجده منهم دائماً ولا تنسوا أيها السادة أن مبدأ الاتحاد قوة يتبع أتم اتباع فى هذا القطر إذا أردنا أن نحصل على أتم النفع منه.

وليس من المحتمل أيها السادة أن يكون لى دخل عظيم فى السياسية فى المستقبل ولكننى لا أكف عن الاهتمام بأمور مصر على قدر ما تسمح به قوتى وعافيتى وأبذل ما يمكننى بذله من نفوذى فى ترقية هذه البلاد على الخطة الموضوعة الآن لترقيتها ولا أمدح تغييراً فجائياً ولا أشير بكل خروج عنيف من المناهج الحالية إلى منهاج جديد وإذا اقتضى الامر فأنى سأطلب وألح خصوصا بأن هذه الحركة الكاذبة المفتعلة لانشاء مجالس نيابية سريعا لا تعامل إلا بقدر ما تستحق وإن سألتمونى أيها السادة عما تستحق قلت لكم أنها لا تستحق شيئاً لأنها لا تعبر فى الحقيقة عن رأى المتنورين من سكان القطر المصرى أوربيين كانوا أو مصريين بل إنه متى

زال كل ما يقال الآن من الهذيان والمبالغة كان الاختلاف فى الرأى بينى وبين خصومى خاصة الذين فى بلاد الانجليز عنهم اختلاف فى الدرجة لا فى المبدأ وهم يريدون أن يعدوا عدوا سريعا جداً وأنا أرى أن الخطوات الحكيمة المتئدة توافق مصلحة البلاد فإن هذا السير هو الذى نفع عندنا فى الماضى وهو الذى أشير بدوامه فلا يبطئ حتى يبدو مشيا ثقيلا ولا يسرع حتى يصير عدوا وقفزا لاقتناعى إنه اذا أسرع كثيرا خيف أن جواد مصر يعثر فيقع وتكسر ساقاه.

وأخبركم الآن أيها السادة أنى أرى هذه الآراء وأذكرها الآن لا آراها لأن من ورائها مزايا سياسية لوطنى ولا لأنى اعتقد أن جميع الاذكياء من الأوربيين والمصريين فى هذه البلاد يشاركوننى فيها كلا بل لأنى أؤمل أن ما أقوله لحضراتكم الآن يترجم إلى لغة أهل البلاد ويبلغ مسامع الملايين الذين لا يسمع لهم صوت أولئك الفلاحين لابسى الجلابيات الزرقاء الذين يتوقف تقدم البلاد فى الثروة واليسر على تعبهم وأنا الذى يعد نفسه دائماً صديقهم الحقيقى أحذرهم من أن يعثروا ويضلوا بأقوال الذين يدعون كذبا بأنهم ينيبون عنهم وينطقون بلسانهم ويفعلون عنهم بلا أذن

ولا توكيل منهم آراء لا يرونها بل لا يفهمونها ولا يدركونها ويطلبون أمورا سياسية لو اجيبوا إليها حالا لعادت بالضرر على مصالح الناس عموما وعلى مصالح أفقر أهالي القطر خصوصا.

ولو كنت أتحول من الدفاع عن هذا النظام الذى دام نحو ربع قرن الآن إلى انتقاده كان أول ما انتقده فيه أن التقدم كان سريعاً جدا فيه عوضا من أن يقال أنه كان بطيئا جداً وأنه لمزيد سرعته لم يتيسر بعد لعامة الناس أن يقتبسوا ويألفوا الاصلاحات التى تمت فيه.

بقى لى نصيحة أخرى قبل أن أجلس فى مكانى.. على جميع الذين يهمهم التمدن الحقيقى فى هذه البلاد أن يتحدوا معا ولا أعني بذلك أن الانجليز والفرنساويين والألمان وسائر الأوروبيين فقط يطرحون ما بينهم من المناظرة والمنافسة ويتحدون معا فى مصلحة واحدة بل إن جميع الذين يريدون أن يكون تقدم البلاد مستمرا دائماً يتحدون جميعهم معا سواء كانوا مسلمين أو أوروبيين أو أفريقيين أو أثيوبيين ويقاومون القوات العاملة فى سبيل التأخر والتقهقر حقيقة سواء كان جهادها عن جهل أو عن غير قصد..

وجلس فخامة اللورد وسط تصفيق الحضور طويلا وهتافهم وقوفا ولابد أنه كان سعيدا واثقا إنه قرر مصير مصر ورسم طريقها لما بقى من التاريخ.. وتحت مظلة الامبراطورية. ولم يكد ينشر الخطاب حتى استفز الأمة بأجمعها وأثار اشمئزازها ولغتها.. كشف كل صغار نفسه واحقاده وأثار استهزاء العارفين بالحقائق وكان أول ما أثارهم النفاق المتبادل بينه وبين جناب الكونت دى لوسيرن مدير شركة قناة السويس، وعميد الجالية الفرنسية فى مصر وكان ألد خصومه لزمن طويل وظلت الحرب الباردة بينهما على أشدها حتى تم الاتفاق الودى وقد أفصح فى الخطاب أن مهمته الأولى لم تكن تحرير لابسى الجلابية الزرقاء ولكن احتواء النفوذ الفرنسى حتى تصفيته وحسم الصراع الدائر حول مصر جوهرة التاج الثانية وكان الاتفاق نموذجا لا يتورع عنه الاستعمار الأوروبى من خسة وضعة وقد كان الفضل فى عقده لتعاظم استعمار صاعد هو الاستعمار الألمانى والذى سحق فرنسا ومكانتها فى أوروبا فى حرب السبعين والذى بنى أسطولا بحريا هائلا استعدادا لتحدى

بريطانيا وانتزاع سيطرتها .. حتى على أمواج البحار وأعترف اللورد أن ذلك كان أسعد وأهم انجازات حياته.. وكتب القنصل الأمريكى فارمان الذى شهد كل الأحداث الجسام منذ عصر إسماعيل .

ظهر منذ البداية أنه احتلال دائم فقد ساد الخضوع التام وقد أصبح بقاء الخديو على عرشه رهنا بتوقيعه على الأوراق التى تقدم له بدون أى مناقشة أو اعتراض تماما كما ينفذ الجندى فى الجيش أوامر رؤسائه وتساءل كثيرون لماذا لا تخلع بريطانيا القناع الذى لا يخدع أحد وتضم مصر وتحكمها كولاية بريطانية وكان هناك بريطانيون كثيرون يرون ذلك بل يرون محاكمة عرابى محاكمة عسكرية واعدامه فورا وإعلان الحماية على مصر وضمها على الفور وقد تقدم ثلاثة آلاف أوروبى من المقيمين فى مصر بعريضة يطالبون بذلك وأتضح فيما بعد أن المعتمد الجديد بارنج «كرومر» من أصحاب ذلك الرأى ومؤيديه ولكن نفاق السياسة البريطانية اختار الطريق الملتوى وأن من الأفضل أن ينفذ الأهداف البريطانية مصريون يتكلمون لغة البلاد ويدينون بدينها وأن

تبدو بريطانيا المنقذ المؤقت واعترف كرومر بذلك فى الكتاب الذى ألفه فيما بعد عن عباس الثاني .

وكان أول الاتفاق الودى مشروع تفتق عنه خيال اللورد «المريض» وهو منح الأوروبيين عامة حق الترشيح والانتخاب واستبدال مجلس الشورى والجمعية العمومية بمجلس تشريعى دولى مختلط يتفق أعضاؤه على حل لقضية الامتيازات الملحة بما يضمن مصالح الأجانب ولا شك يطمس السيادة والجنسية المصرية وتصبح مصر لمن يسكنها وينتهى الشعار الذي كان يستفز جنابه وهو مصر للمصريين وتتحول مصر إلى مشروع استثمارى استعمارى تحت السيادة البريطانية وبإدارة مختلطة أوروبية مصرية من الموالين لا تنفذ إليه التيارات التى نفذت إلى المجلسين «الهزليين» الشورى والجمعية العمومية التى كانت مصدر قلق وازعاج دائم لفخامة اللورد والسادة في لندن ولا ريب أن حديثه الدقيق عن زوجته ذات القلب الكبير الذي تفرغ لتخفيف آلام البؤساء وتمديد المعونة للفقراء- ولابد أنه أثار سخرية مرؤوسيه والذين كتب بعضهم فيما بعد أنها كانت الزوجة الثانية والتى تزوجها بعد أشهر من وفاة زوجها الأول وأنها غيرت طريقة حياة قصر

الدوبارة وانها مختلفة عن الأولى ومرحة وتحب البذخ والمآدب والحفلات والسهرات.. وانجبت منه طفلا شغل حياتهما.

وكان أبرز ما كشف عنه الخطاب سياسيا أن حقده على الخديو وثأره منه لم يبرد حتى اللحظة الأخيرة، وكان قد تفاقم فى المدة الأخيرة قرب النهاية وبلغ ذروته فى حديث مطول أدلى به الخديو إلى جريدة الكان «الفرنسية» وأثار دوياً فى أوروبا وفى بريطانيا خاصة، ثم فى مصر.. حيث نقلته صحيفة الحزب الوطنى الجديدة التى صدرت بالفرنسية ثم نشرته اللواء وأصبح محور حديث اهتمام الرأى العام وكما لم يسبق كان تحدياً مباشراً ورمياً للقفاز فى وجه اللورد وقال مراسل الكان فى ترجمته «اللواء»:

قابلنى سمو الخديو مرحباً ومبتسماً فى قصر القبة وهو قصر سموه الشتوى وكان النهار وضاح الجبين والحديقة ترسل من أنفاس الربيع روائح عطرية وأشجار الموز مزدانة بالأزهار والعصافير تغرد مبتهجة فى أشجار الاكاسيا القائمة على طريق القصر فى جو سماؤه نقية صافية من الغيوم. وقد كنا نود لو أن ما ترمز إليه الطبيعة ينطبق على الحياة العمومية فى مصر فإن سوءات السياسة الإنجليزية أحدثت استياء شديداً فى البلاد حتى أخذت الألسن تلهب

برغبة سمو الخديو عن عرشه لما تولد في نفسه من الملل والضجر بما يظهره الانجليز من تجاهل سلطته وقد كثرت التقديرات والتخمينات على أثر ما أظهره سمو الخديو من التحفظ والصمت المستمر منذ سنوات طويلة غير أن سموه عدل معى عن ذلك وأني سعيد باقتدارى على نشر ما صرح به هنا قال سموه:

إن ضرورات الحالة السياسية الخاصة جعلتني منذ زمن طويل أحجم عن الإعلان للملأ بما أشعر به فى مسائل بلادى ولكن مادمت تقول إن سكوتى هو فى الخارج أداة الرجم بالغيب ومثار للخطأ ومادمت أعلم أن هذا التحفظ يفسر فى مصر نفسها بضروب مختلفة فإنى أغتنم فرصة زيارة صديق هو مندوب الكان لأفصح عن عواطفي وأرائى.

أنا أحب بلادى حباً شديداً كجميع المصريين من كبيرهم إلى صغيرهم ونحن متشبثون بأرضنا لأنها أشياؤنا وأملاكنا وموضع حبنا لا نستطيع أن نموت بعيدين عنها فإن المصريين لايغتربون ولا يتركون وطنهم وإذا غابوا عنه فإنهم يشعرون بتربيح الشوق والرغبة فى الرجوع إليه ولا أزال اتمثل نصب عينى جماعة من الفلاحين المساكين الذين لقيتهم فى أثناء أسفارى فإن العيون تقرأ على جباههم أية الحزن البليغ والميل

الشديد إلى مرأى قريتهم فى الدلتا أو فى الوجه القبلى ولقد كان منظرهم يؤثر فىّ تأثيراً شديداً وإذا لم يكن لأولئك الفلاحين شئ فى الفلسفة والعلم التاريخى فإن لهم غريزة طبيعية تجذبهم نحو الوطن وهذا الشعب المحافظ هو شعب نجاح فإنى تتبعت مسيرته فى سبيل الرقى يوماً فيوماً ودهشت من السهولة العجيبة التى يتلقى بها التعاليم الأوروبية.. أعرض على المصرى أى شئ أردت وقدم له أكثر الآلات. ارتباكاً فى تركيبها أو أكثر المعدات إتقاناً واكتمالاً فهو يتعلم كيف يستخدمها بلا إبطاء ولقد رأيت فى مصانعنا العمال المصريين يديرون معدات بالغة منتهى الدقة وكان المهندسون يقولون لى معجبين إن جميع العمال عندنا من الوطنيين وأنهم تدربوا على العمل فى بضعة أسابيع فقط وقد استخدم هذا العقل أيضاً فى ترقية التمدن الحديث بالقطر المصرى فتعود الشعب على الأحوال والظروف الجديدة وألفها سريعاً فهو يفهم ويستفيد وأن اليوم الذى يصبح فيه الفلاح المصرى مضارعاً لفلاح أى بلد من البلدان المتمدنة أصبح قريباً.

عودة الابن الضال

يقول اللورد كرومر فى خطاب الودا ع :

المالية المصرية أصبحت على قواعد ثابتة وعادت ثقة أوروبا بنا حتى أصبحت القاهرة والإسكندرية من أهم المدن المالية فى العالم وقد زال القلق الدولى من جهة الدين المصرى وحان الوقت الذى يجب أن نصرف فيه كل جهدنا لا في تقدم الأهالى المادى فقط بل فى سد حاجاتهم العقلية والأدبية وأنى لا أرى أمراً أهم من ذلك .

وقد أخطأ من قال أن المطالب الوطنية تحولت إلى حركة عدائية ضد الأجانب وإلى حركة تعصب فإنى أنكر هذا القول بجميع قواى إن الأمة المصرية طيبة القلب بطبيعتها وهى مستقيمة محبة للعمل والتسامح ومتى عوملت برفق ولطف عرفت كيف تقابل ذلك وأن التسامح من القواعد الكبرى فى ديننا والقرآن يعلمنا أن نحترم جميع الأنبياء سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ونحن جميعا متمسكون تمسكا شديدا

بديننا ومحافظون على تعاليمه . سافرت كثيرا ولو كان جميع الناس يدققون فى المحافظة على قواعد دينهم الأدبية كالمسلمين لكان الشر أقل مما هو عليه الآن فى العالم وأنى أريد بذلك دحض تهم التعصب التى تغضبنا وقد أكدوا أيضا أنى أريد إعادة السلطة الفردية لأطبقها على الطريقة الشرقية وأننى أريد أن أسترجع العادات الاستبدادية كما فعل بعض أسلافى وأنا أرد على هذا القول بأن تربيتى كانت كلها فى أوروبا وأنى عرفت ضرورة المشاركة بين الأمة وعاهلها لضبط إدارة البلاد وجلب الخير لها فإن السلطة الاستبداية لو وجدت لكانت حملا ثقيلا على عاتقى ولو كانت كل أفكارى متجهة إلى إشباع مطامعى الشخصية لما كانت الخمس عشرة سنة من ملكى سوى آلام طويلة لا تطلق بيد أنى اشتغلت بكل قواى لخير بلادى ولم اتبع سوى خطة سياسية واحدة هى مساعدة كل من يعمل لخير البلاد فإن لم أعارض فقط فى اتخاذ تدابير كنت أعتقد أنها نافعة لمصر ولم أستخف قط بنصيحة من النصائح» .

وطار صواب اللورد ، وأنطلق كالثور الهائج .. يهدد ويتوعد «الولد الطائش الأحمق فى القصر الذى يخاطر

بعرشه» كما كان يسميه وحملت جريدة التايمس حملة ضارية على الخديو المتعصب المتخلف الذى تحرضه فرنسا وتركيا» .

ولم يتورع أو يترفع فخامة اللورد عن أن ينفذ ما توعد به المستشار المالى كوريت وأنه إذا لم يحضر الخديو حفل الوداع أو يرسل مندوبا سوف يذكر اللورد ابنه توفيق وجده إسماعيل ولن يذكره بشىء بل سوف يذكر فضائح الأوقاف والمحاكم الشرعية والأزهر وحدث ذلك وتغنى اللورد فى توفيق قائلا : «إن الناس لم يعطوه حقه ولا انصفوه وكان رجلا يعرف بلاده ويعرف أهل بلاده أيضا حق المعرفة وكان حلقة الاتصال بين المصلحين والشعب المصرى والتاريخ يكون ظالما لا عادلا إذا لم يجعل لتوفيق باشا مكانا ومقاما ذا شأن بين الغابرين من الملوك والأمراء الشرقيين .

وكان يعرف تماما أن عباس يزدرى أبوه ويكرهه وإن تظاهر أحيانا بالعكس وقد كان ذلك أشد ما أخذ عليه وتعجب إن كان فى نفس الوقت مفتونا بجده إسماعيل ويجد فيه مثله الأعلى .

وكان الخديو توفيق فى آخر أيامه أشد الناس نقمة على الإنجليز وأنهم استعملوه ثم عزلوه فى قصره حيث ظل حتى

أخر أيامه بلا حول أو طول وكان كرومر «يرثى له ويعطف على حالته» كما جاء فى بعض تقاريره ولكن لم يكن يترك له أى نصيب فى السلطة أوْ الحكم وكان أنيسه الوحيد آخر أيامه أحمد باشا فريد ناظر الخاصة والرجل الأمين الوحيد فى الحاشية وكانت الشكوى التى تعذبه وتقض مضجعه والتى كان يرددها على مسامع ناظر الخاصة «كان أكبر خطأ ارتكبته فى حياتى أننى ارتميت بنفسى فى أحضان الإنجليز» .

ومات حزينا مكتئبا فى سن الأربعين .

وقال عنه «كان المرحوم الخديو توفيق يثير امتعاض البلاد وقل سعى الناس مختارين إلى السراى وقلت جموع الناس فى حفلات الصلاة معه وكان ذلك من شأنه أن يجعله رحمه الله يستاء من هذه المعاملة وأدرك رؤساء المصالح هذا الاستياء فكان أكبر ما يتقرب به ذو رئاسة إلى الخديو هو أن حث مرؤوسيه على حضور الحفلات والتشريفات وكان أكثرهم إقناعا هو ذلك الرئيس الذى يقول لمن حوله لابد لنا أن نثبت أن الأمة والأمير شىء واحد حتى تسقط حجة المحتلين الذين يبنون احتلالهم على الجفاء بين الأمة والأمير وكان من الأخبار

السارة وقتئذ أن تنشر الصحف أن السراى يوم التشريفات كانت غاصة بالعلماء الأعلام والذوات الكرام وعمد البلاد وأعيان الأقاليم حتى تأخر موعد الفراغ من التشريفات كان يرضيه ويسره رحمه الله أن يرى الأمة ملتفة من حوله بمناسبة ومن غير مناسبة ويدعو له كل بما شاء ويهتف له كل هاتف بما تجيء في رأسه» .

وكان افتتان الخديو عباس بجده إسماعيل بلا حدود وكان نموذجه ومثله الأعلى وكان يزعج بذلك كرومر ويثيره ، وكان الخديو يحرص على زيارته ولقائه فى أسطنبول حيث انتهى به المطاف وحينما مرض أشار عليه الأطباء بالعودة إلى مصر واستمات الخديو فى إقناع كرومر بذلك ولكنه رفض تماما وأيده رئيس النظار نوبار وحينما أشتد المرض طلب أن يدفن فى مصر ورفض نوبار وكرومر المطلب الأخير ولم يغفرها الخديو للاثنين .

ولهذا كان حرص كرومر أن يسخر من إسماعيل .

قال «كان لإسماعيل باشا رحمه الله طرق عنيفة فى معاملة الذين لا يطأطئون الرؤوس أمامه ولا يجثون لهيبته «ضحك» ومع ذلك وقف رياض باشا منذ ٣٠ سنة واعترض

بكل جرأة على سوء الإدارة وعلق الجرس بعنق القط» .

وكـان نوبار أول رئيس وزراء مـصـرى هرب إلى أوروبا وسعى إلى رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٨٧٩ نصيحته أنه لابد من التعجيل باحتلال مصر لأن هناك بوادر ثورة عسكرية قد تجعل ذلك مستحيلا ولم يلبث أن لحق به رياض باشا وأيده في طلبه العاجل .

وقد تولى نوبار رئاسة الوزارة في ظل الاحتلال وتولاها رياض ولكن خرج كل منهما مطرودا بعد أن مرغ كرومر كرامتهما فى التراب .

ولم يذكر فخامته كلمة واحدة عن الرجل الذى يدين له الاحتلال بتوطيد أقدامه فى أحرج الأوقات وهو «محمد شريف باشا» أبو الوطنية والدستور ذات يوم والذى اختاره عرابى وعرضه على الخديو توفيق أول رئيس وزراء للثورة والذى لم يلبث أن تنكر لكل شيء وخان كل مبادئه وانضم إلى اللورد دوفرين فى وضع نظام الحكم البريطانى الاستعمارى وتولى تطبيقه وفرضه فى أولى سنوات الاحتلال العصيبة وقد طرد عطوفته من الحكم ومن التاريخ ببرقية شهيرة من وزير الخارجية جرانفيل حينما رفض إخلاء السودان لكى تعيد

بريطانيا احتلاله ورغم كل شيء تمخض الخطاب عن مفاجأة مبهرة إن لم تكن كرامة ومعجزة قوضت كل ما جاء فيه وشهد بذلك شاهد من أقطاب أهلها انجابت الغشاوة عن بصر وبصيرة فيلسوف الولاء والمحاسنة وانقشعت الغمة عن عقله وروحه .

وعاد الابن الضال إلى أحضان أمه يكفر عن انحرافه وانتفض أحمد لطفي السيد غاضبا محتجا وامتشق قلمه على صفحات «الجريدة» .

يا للعجب .

يتحدث جناب اللورد كرومر عن أولاد العميان حين يبصرون ونحن معه ولكن نؤكد له أنهم سوف يبصرون حين يرون ويملء عيونهم ما لم يرد بخلده سوف يرون بملء عيونهم كيف قتلتم حركتنا الوطنية وكيف أعتديتم على حريتنا وألغيتم دستورنا وأفسدتم التعليم عندنا وأذللتم المصريين وأتخذتم من الوزراء آلات صماء بصلفكم واستبدادكم ، وسوف يرون أيضا كيف تحيزتم للمصالح الأوروبية وكشفتم عن الغرض الأساسى الخطر الذى عملتم له وهو تحويل مصر إلى مستعمرة أوروبية مختلطة يكون للأوروبيين فيها المغنم

وللمصريين المغرم .

سبحان القوة وما أغث وأسمج ما يخرج منها .. يدعو كرومر الإنجليز والفرنسيين والألمان وسائر الآخرين للاتحاد ولكن على الإفريقيين والأثيوبيين والمسلمين جميعا أن يركعوا ويموتوا تحت أقدام سادتهم .

كيف أيها اللورد ستجد الأكل مع المأكول والغاصب مع المغتصب والحاكم المستبد مع المحكوم الخاضع إن اللورد يريد أن يصير المصريين للإنجليز خصوصا وللأوروبيين عموما بصورة غير قابلة للرقي ليسهل بذلك الموافقة على محو الجنسية المصرية الصحيحة التى يحاول محوها منذ وقت طويل .

وكتب : «لا يخجل جناب اللورد عن أن يتحدث عن لابسى الجلاليب الزرقاء .. هؤلاء الذين شنقهم فى دنشواى والذين جلدهم أمام أهلهم وخلق ثأرا لن ينساه المصريون قط على مر القرون .. كلام غث سمج ولعله حينما يتحدث عن أن الاتحاد قوة يقصد بذلك اتحاد الإنجليز والأجانب على شنق أهل دانشوى ومن يشاءون من المصريين وجلدهم أمام أبنائهم وأقربائهم» .

وكتب «يقول اللورد إن الاحتلال البريطانى باق إلى ما شاء الله وأن حكومة جلالة الملك أكدت ذلك رسميا وأنه مادام الاحتلال موجودا فإن الحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسئولة ولا يكون عند أحد شك أو ريب فى ذلك .. وهذا منتهى كما سمعنا فى السياسة العالمية من الصلف والكبرياء والعمى النفسى وفقدان البصيرة ولا يتفق ذلك سوى على قول الشاعر :

تقفون والفلك المحرك دائر

وتقدرون فتضحك الأقدار

وهو يتحدث عن جواد مصر وخوفه أن يكبوا ويقع وتكسر ركبته ، وينسى أنهم كسروا ركبتيه مقدما لكي لا يفلت من أيديهم .

سبحان القوة ما أشد عسفها وما أكذبها وما أسفلها» .

ويشتد به الغيظ الغضب ويكتب :

«ينسى كرومر دنلوب وفساد التعليم وضياع كرامة الموظف المصرى وفقدان الحرية والكبرياء وينسى مقاومة مشروع الجامعة بمشروع الكتاتيب وتفضيل الأجنبى على

المصرى ورعاية الأجانب ونبذ المصريين ويشيد بالذين ارتكبوا ذلك باغوص نوبار ويعقوب أرتين والمستشارون الإنجليز الملوك غير المتوجين على مصيرنا إن كل ما قام به فخامته كانت فائدته الكبرى للأجانب وهل هناك أسوأ من اتفاقية سنة ١٩٠٤ الاستعمارية الشنيعة التى يتجلى فيها روح الاعتداء على شعوب شمال إفريقيا من حدود مصر إلى المحيط الأطلسى والذى يرزح تحت نيرها هذه الشعوب .

ويمجد اللورد مشروع تعديل الامتيازات الأجنبية التى طالما ندد بها بمشروع يكرسها وأسوأ منها يريد فخامته أن يؤلف مجلسا تشريعيا دوليا يتخلص من شخصية التشريع المصرى والقضاء المصرى ومن يمد يده إلى الناخبين فيقضى عليهما بيد بريطانيا الحديدية . وأن ذلك حبا للمصريين .

ما أعظم هذا الحب لمصر والمصريين .

وما أسلم نوايا اللورد الكبير

وتصاعد القصاص من كرومر إلى سادته فى لندن بهذه الأمبراطورية وقال «كتب جلادستون إلى صديقته مدام أولجانوفتون فى موسكو بعد أيام فقط من معركة التل الكبير

يقول فيه إن المملكة المتحدة يسودها الفرح والسرور والبهجة بما أنعم الله علينا من نعمة وفضل وانتصار عظيم وكان عملا يتميز بالأمانة ودليلا على أننا ماضون فى سبيلنا نجاهد فى سبيل العدل الأسمى والحضارة .. مهما نظر إلينا الآخرون بعين الغيرة والحسد وإن من حقنا أن نفخر بجيشنا وأسطولنا وقوادنا وجنودنا وقد أرسلنا ٢٥٠٠٠ رجل عبر مسافة ٣٠٠٠ ميل . وكان من فضل الله علينا أن حققنا نصرا سريعا فى نصف ساعة وإن كان قتل فيها ٢٠٠٠ فلاح من فلاحى النيل . وقد انتعشت بورصة العقود وارتفعت الأرباح على الفور» .

وعقب ديلفريد سكاون بلنت على الخطاب .

(هكذا يتغنى جلادستون بمذبحة من أشنع جرائم العدوان أليست حضارة الغرب عبارة عن وحشية صارخة يغلفها فخامة مزيفة .. إن جلادستون يقول إنه يبدأ يومه بقرأة صفحات من الإنجيل) .

استرد رئيس تحرير الجريدة نفسه وقد بدأ حياته السياسية عضوا فى الحلقة الأولى للحزب الوطنى والتى بدأها مصطفى كامل والخديو وقد تخرج نفس السيد من

الحقوق اشتغل بالنيابة والتقى بمصطفى كامل الذى «جنده» للحزب الوليد وعرفه إلى الخديو عباس ، وتم الاتفاق بين الثلاثة على إصدار جريدة تعبر عن الحزب ، وحمايتها من بطش فخامة اللورد تفتق الرأى على خطة فريدة أن يسافر لطفى السيد إلى سويسرا ويقيم عاما كاملا وبهذا يحق له أن يكتسب الجنسية السويسرية ويعود إلى مصر وإصدار جريدة تتمتع بحماية الامتيازات الأجنبية .. ولكن حدث أن تعرف لطفى السيد إلى الشيخ محمد عبده فى سويسرا ثم وقع تحت تأثيره وانتقل إلى معسكر المعتدلين ، واشترك مع المستر فندلى نائب كرومر والشيخ محمد عبده فى وضع حجر الأساس لحزب الأمة وتولى رئاسة تحرير الجريدة وظل حتى صدمه خطاب اللورد صدمة ردت إليه الوعى وأنقذته من التيه واستعاد علاقته الحميمة بمصطفى كامل وكتب الدون جورست :

(ليس هناك أسوأ من الجريدة سوى اللواء وليس هناك أسوأ من اللواء سوى الجريدة والمؤيد) كان الفرق شاسعا بين ما نشرته الجريدة قبل الخطبة بيوم واحد ثم بعدها .. قال :

(لو بقى جناب اللورد كرومر عاما واحدا فى منصبه

لاحتفل بعيده الذهبى فى خدمة دولته لأنه صرف حتى اليوم تسعة وأربعين عاما فى خدمة المصلحة البريطانية وقد أصدرت الجريدة ملحقا ذكرت فيه لمحة من ترجمته ويحمل بها اليوم أن تفضل أعماله ذلك السياسى العظيم وتدعها تنطق بما له وما عليه .. قيل أن ضابطا مدح نابليون قبل معركة فى إيطاليا فقال له انتظر حتى ترى أعمالى ونحن رأينا أعمال اللورد ولنستنطقها فى الحكم عامة .. وليس فى وسع أحد أن ينكر النتائج الباهرة التى وصلت إليها مصر بفضل سياساته المالية وإذا كان بعضهم ينتقد تفاصيل صغيرة فى بعض المصروفات فإن كل عاقل ينظر نظرة صادقة إلى تلك السياسة يحكم بأن لورد كرومر من أعظم الاقتصاديين وأكابر الماليين وليس بعجيب أن نعظم ثقة الأوروبيين باللورد حتى صاروا يعدون كلمته وليعمل المصريون بنصيحة ذلك المالى الراحل والشيخ الكبير ، ولا ينكر أحد على اللورد كرومر أنه سياسى محنك بعيد النظر رحب الصدر طويل الأناة كما يجب على كل سياسى . وأنه أيضا شديد المراس فى مطلبه عظيم الإصرار على أمره يبقى سنوات عديدة يسعى فى غاية واحدة ويتخذ من كل سانحة حجة وبرهانا لتأييد رأيه ولو اتخذنا من

تلك الحوادث مسألة الجلاء فقط لكانت برهانا كافيا فانظر كيف أنه كان يجاهد جهادا متصلا حتى يستنبط من كل زمن وسيلة جديدة لرضوخ قدم دولته في وادى النيل وكيف بعث على السودان حملة وكان فى كل ساعة يستنجد الدماء الإنجليزية التي اريقت فى أم درمان على كل إنجليزى يلفظ الجلاء حتى استمال إلى رأيه كبار الأمراء والمحافظين وبات الأسطول البريطانى العظيم حارساً لما قرره فى المسألة المصرية وما رأينا حكومته ترد له طلبا أو تستنكر له سياسة ولو بلغت أقصى الشدة) .

وكان الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد شخصية فريدة مهيبة ومتميزة فى حياة العصر عامة ، وكان يستطيع أن يوفق ويجمع من صلات وعلاقات وثيقة مع الخديو والقصر والحزب الوطنى وقصر الدوبارة . وكثيرا ما كان يسدى النصح إلى فخامة اللورد ترشيدا وتصحيحا لسياسات الاحتلال ولكن أجهزت الخطبة على الخيط الأخير من ثقته فى صديقه اللورد .

لو كنت مكان اللورد لما ختمت حياتى في مصر بهذا الخطاب الأسود الذى كله تناقض وتحامل على المصريين

وقضاء عليهم بالتخلف والجمود ثم الغمز فى دينهم والطعن على أخلاقهم ومبادئهم وقد وصف الأمة بأنها قاصرة متعصبة ليس فيه رجال أكفاء ولا تصلح لأن تكون أمة أبدا وذلك لا لشيء إلا لأن الأمة المصرية لم تولم له الولائم ولم تقم له التماثيل ، وهو يبرح وادى النيل ساخطا عليها لأنها لم تحتفل بوداعه كما كان يريد ولابد أن تذكر جنابه أنه لو كان هناك سبب لتخلف المصريين كما يدعى دائما فى سياسته التى جرت على نمط يعطل ذكاء المصريين ويحول بينهم وبين الترقى الذى هم مستعدون له .

وكتب الشيخ مرة أخرى مخاطبا اللورد :

«إذا كنت أمينا حقا فعليك حين تصل إلى بلادك أن تبلغهم أن المصريين لا يقبلون محو وطنيتهم ولا تجريدهم من قوميتهم ولا القضاء على أهليتهم ولا يمكن أن تسلب من مصر وطنيتها وتوزعها على كل من وجد فى مصر مرتزقا ينزل بها هابطا مفلسا ليصبح فى الغد شريكا للوطن الأصيل فى كل حقوقه إضافة إلى امتيازات تضعه فوق كل القوانين» .

وقامت المؤيد بإجراء استفتاء بين أقطاب الأجانب

والمتمصرين وأعيان الأقباط تقييدا لكل ادعاءات وسياسات اللورد .

قال مدير بنك الكريدى ليوتيه الفرنسى .

لم أشعر في مصر بأى تعصب مما يتهم به الأمة المصرية اللهم إلا إذا كان موجودا في غير الأوساط التى تمتد إليها معاملات البنك وهى مصرية أقصاها إلى أدناها» .

وقال المسيو تيمازاكى أكبر مصدرى الأقطان :

«أشهد أني ما شعرت قط في معاملاتى مع المصريين بأننى أعامل بشرا يخالفوننى فى العقيدة أو مذهب ولا أدرى ما هو التعصب الذى يتحدث عنه اللورد» .

وقال شكور باشا صديق اللورد الحميم :

«أشهد أننى أفضل أن أتجول وحدى فى حوارى السيدة زينب عن أن أسير وحدى فى حي مونتمرتر فى باريس» .

وقال إسكندر عمون باسم المتمصرين (الأمة المصرية أقرب الأمم إلى التمدن الصحيح والمصرى أكثر إكراما للغريب من سائر الشعوب) وأعلن باسيلى تادرس باشا من زعماء الأقباط وصديقا مقربا وملازما للورد .

لا صحة مطلقا للقول بوجود أى تعصب دينى أو عنصرى في مصر .

وصرح المفكر الاشتراكي ستيلي مستميل وكان من مؤيدى اللورد والاحتلال (ليس هناك أى تعصب في مصر على الإطلاق وهذه دعوى باطلة) وتحالفت الجريدة والمؤيد واللواء لأول مرة في تشييع اللورد بما يستحق وكانت جنازته السياسية التي اختتمها اللواء (إن أعظم ما حققه في مصر كما قال كان الاتفاق الودى مع فرنسا وهذا أحط ما عرفه تاريخ القرن السياسي وأشد التصرفات خسة ونذالة) .

واستغاث اللورد وبطانته بلسان الحال المقطم وخلعت آخر أقنعة الحياء وهى لم تعرفها قط . وانهالت .

هل نسيتم ذلك العهد حين كانوا إذا أرادوا تجربة مدفع لمعرفة صحة مرماه يجعلون الناس هدفا لقنابله مستعيضين الحى بالجماد ولا نخالكم إلا ذاكرين أن أكبر عمدة في القطر المصرى كان يرتجف رعبا من أقل قواص تركي وأن المظلوم كان مخنوقا وإذا اشتكى يقضى عليه وتصم دون سماعه الآذان» ألا يعترفون أن عدالة الاحتلال ومساعى اللورد سادت في الأحكام بين الكبير والصغير والغنى والفقير ودفعت

المظالم وزالت المغانم وعرفت البلاد سبيل الانصاف وإذا كنتم لا تعترفون بعظم الفرق بين العهدين فلانكم لا تراعون الضمير والذمة .. أيها الجاحدون . هل تنكروا أن فخامة اللورد استطاع في أقل من خمس وعشرين سنة رفع القطر من حضيض الظلم والظلام إلى ذروة النور والعدل ووطأ لأهله السعادة والرفاهية وجهز لهم سبيل التقدم) .

وتساءلت المقطم :

ما العيب في المجلس المشترك الذى اقترحه جناب اللورد أليس هو لخير مصر وأهلها الوطنيين قبل سواهم ولكنه لم يتم بعد ولا نظن أنه يتم في المستقبل مادام الذين يدعون الزعامة والوطنية يسفهون كل رأى صامت يكون من ورائه الخير والنفع العميم للملايين من المصريين وهب أن هذا النخيس وقع فعلا فما وجه الضرر منه أليست أوروبا وغيرها من البلدان الراقية جارية عليه فلماذا تنكرونه على مصر وأنت تحسبها راقية وتطلب لها مجلسا نيابيا ولماذا نخاف منه وننكر ذكره) :

أليس لأنه يجمع بين العناصر المختلفة التى تتألف منها الأمة المصرية ويمحو من معجم التنطع الذى الفتموه فى هذه

الأيام ألفاظ الدخيل والأجنبى والمرتزقة .. أنكم ترمون إلى غاية معروفة وهى دوام الشقاق والتفريق بين العناصر ترويجا لتجارتكم ولاجتذاب الغوغاء إلى رونق بضاعتكم وطنطة ألفاظكم ولو تم التجنس لأقفل فى وجهكم هذا الباب .

وتوجت المقطم خطبة الوداع باسم الخطبة العظمى وقالت :

(اتفق رأى الذين سمعوا خطبة اللورد كرومر خاصة والذين قرأوها عموما على أنها أعظم خطبة سياسية خطبت فى الديار المصرية وقد استعظم الذين لم يسمعوا اللورد يخطب من قبل هذه المرة نادرا من براعته فى الخطابة وما نثر على أسماعهم من درر الفصاحة والبلاغة حتى أوشك تصفيقهم استحسانا لها أن يكون متواصلا وأن يختلط دوى هتافهم بصوته . أما الذين سمعوه يخطب وهو فى تمام الصحة والعافية والنشاط والقوة فكانوا يلحظون دلائل الضعف والتعب بادية عليه وعلى صوته متعه الله بتمام الصحة والعافية قريبا) .

وفسرت المقطم سر العظمة قالت إن أعظم ما جاء فى الخطبة أنها أكدت مسألة دوام الاحتلال إلى أجل غير مسمى

واستمرار السياسة التى تجرى عليها مصر مدة دوام هذا الاحتلال وقد طمأنت الجميع على استمرار التفاهم وذلك لأن كل عاقل يتذكر وينتفع بالذكرى فى قياس المستقبل على الماضى يحكم معنا أنه إذا كان المصريون يريدون خيرا لأنفسهم ولبلادهم وجب أن يتبعوا الخطة التى رسمها فخامة اللورد وقال لهم إنه لم يرسمها لأن فيها منفعة لبلاده أو مزايا سياسية لدولته بل لأن فيها الخير لمصر ولأهاليها ولأن بريطانيا تأبى أن يسير المصريون على غيرها ماداموا تحت سيطرتها وأن العاقل من تبصر وتذكر ولم يغتر بهذيان الاغرار والذين يبدأهم أن كلام الليل يمحوه النهار فإذا قبل المصريون بصحة صدق لناصح لهم وأعظم صديق أشفق على فقرائهم وهو فخامة اللورد نفعوا أنفسهم وخدموا بلادهم وأما إذا طاوعوا المغرورين فلومهم على نفوسهم لأنهم هم الذين يأبون إلا أن يشربوا البحر وينطحوا الصخر .

ولم يكن خطاب اللورد أعظم الخطب بل كان أشرفها أيضا وقالت المقطم :

(أشرف ما فى خطاب اللورد قوله إن خطابه سيترجم إلى لغة أهل البلاد ويبلغ مسامع الملايين الذين لا يسمع لهم صوت

أولئك الفلاحين اللابسين الجلابيات الزرقاء الذين يتوقف تقدم البلاد في الثروة واليسر على تبنيهم وأنه هو الذى يعد نفسه دائما صديقهم الحقيقى يحذرهم من أن يغتروا ويضلوا بأقوال الذين يدعون كذبا أنهم ينوبون عنهم وينطقون بلسانهم) .

وأضافت المقطم فى ثقة :

(إن جرأة صاحب اللورد «مصطفى كامل» لا تؤثر أقل تأثير فى منزلة اللورد السامية والتى حازها فى المقامات العالية ولا تحط من فضل الذى اعترف له به القاصى والدانى على اختلاف الملل والمشارب ولا يزيد الناس إلا رسخا بالاعتقاد بسمو مداركه) .

وكان أشد المودعين لوعة وحرقة محمد بك وحيد الأيوبى رئيس الحزب الوطنى الحر الذى نشأ فى كنف اللورد معارضا حتى الموت الحزب الوطنى «غير الحر» .

تودع مصر والأسف شديد أول مصلح لها من شيد دعائم العدل فيها وأول مؤسس لأسباب الرخاء والسعادة فى ربوعها أول رجل حكم فيها بحكم وعدل وحكمة لم ترها فى أدوارها

من عمرها من عهد عمر وصلاح الدين وترك فى كل ناحية من أنحائها مـآثر جليلة قوائمها متينـة ثابتة ومنافعها عظيمة عامة .

يودع المصريون أبا شفوقا رحيما رباهم في مهد حنانه وفي كنف عدله واعتنى بمصالحه وبهم خمسة وعشرون عاما حتى أوصلهم إلى ما لم يكونوا يحلمون به من المدنية والراحة والسعادة والحرية الراقية والحقوق الشخصية وقد ترك في قلب كل فرد من أفراد الأمة الأحرار ذكرا يجعله لا يغفل عن شكر أفعاله ومدح كمالاته أناء الليل وأطراف النهار وما من عين المصرى حر إلا وترفعه فى حله وترحاله بالنجلة والمعزة وما من لسان إلا ويردد له هذه الدعوات جزاك الله عن مصر والمصريين خيرا ورافقتك السلامة أينما سرت وحيثما حللت وكان للاحتلال شعراؤه أيضا .. وأنشد أحمد نسيم قصيدة عصماء

يا منقذ القطر لا ينسى لك النيل يدا

لهـا من فم الإصـلاح تقـبـيل

حاشاك ما أنت بالمغصوب منصته

كـلا ولا أنت من علياك مـعـزول

يهـولون بلا جـدوى مـزاعـمـهم

ولن يضـــرك إيهـــام وتهـــويل

من الفت بين قلوب الخلق عن ثقـة

يدعـو لهـا الخلق قـرآن وانجـيل

وعـوضـه عن التـمـاثيل بالشـعـر

فـعل النفس بالتـمـثـال تبـصـرة

وإن تكن عنك لا تعنى التــمــاثيل

وأجهز أحمد شوقى على شعراء الاحتلال فى قصيدته: أيامكم أم عهد اسماعيل .

أم أنت فـــرعـــون يســوس النيل

أوســــعــــتنا يوم الوداع إهـانة

أدب لعـمـرك لا يصـيب مـثـيـلا

لما رحلت عن البـلاد تسـتـهـدف

وكـــأنك الداء العـيـاء رحـيـلا

وعقب إدوارد دامسى على النهاية الأليمة .

كان داؤه العضال ومرضه المزمن الغطرسة والعجرفة وقد تفاقم إلى حد جعل التغيير محتوما .

محنة الديون تقصم ظهر الخديو إسماعيل
الفخ الاستعمارى الكبير

بدأت المحنة بداية مختلفة . ذلك أنه حينما بدأت مشكلة الديون تتصاعد رأى الخديو إسماعيل أن يبعث إلى بريطانيا يطلب خبيرا ماليا كفؤا يستشيره ويسترشد بآرائه حول الإصلاح .

وسارعت الحكومة البريطانية التى كان يرأسها دزرائيلى بتلبية الطلب . وكان ذا اهتمام خاص بشئون مصر وخاصة بقنال السويس ، وقد استطاع أن يفوز على فرنسا وأن يعقد صفقة مع الخديو لشراء أسهمه فى القناة واكتسب بذلك مركز قوة فى شئون مصر عامة .

واستجاب دزرائيلى لطلب الخديو وانتدب المستر كيف ليقوم بالمهمة .

ولحسن الحظ كان الرجل أمينا نزيها عكف على دراسة المشكلة وألم بكل جوانبها .

وتحقق أن ديون مصر هى حقيقة أكبر عملية نصب فى القرن التاسع عشر كما أطلق عليها فى الدوائر الرأسمالية العليا .

وأن مصر تسلمت فعلا أقل من نصف المبالغ المستحقة وأن الباقى تبدد بين الوسطاء والسماسرة والمرابين وكما لم يحدث فى أى قروض أخرى واكتشف أن مصر لم تقصر أو تستسلم حينما فاجأتها الأزمة وأن وزير المالية المصرى «الوطنى» اسماعيل صديق انتهى إلى مشروع مبتكر لسداد الديون هو أن يدفع المالك الكبير ضرائب ست سنوات مقدما على أن يعفى من نصف الضرائب نهائيا ، وذلك لتدارك كل المضاعفات والتى تنبئ بأسوأ المصير ، وقد استجاب الملاك وتم جمع ١٧ مليون جنيه سددت الأقساط واكتشف أن مصر كانت ضحية النظام الرأسمالى العالمى القائم يومئذ وأن النهاية المفاجئة للحرب الأهلية الأمريكية بعد أربع سنوات ارتفعت خلالها أسعار القطن المصرى إلى الذروة وساد سوق القطن العالمية ثم انخفاضها إلى القاع وتقلص البرنامج الطموح الذى أراده إسماعيل أن يجعل مصر الجسر الذى تلتقى عليه حضارة الشرق والغرب . لم يكن إسراف

إسماعيل ويذخه السبب الرئيسى !! .

وأنهى المستر كيف فى تقريره إلي أنه مهما كانت وطأة المشكلة ومهما كانت الأخطاء والخطايا إلا أن الاقتصاد المصرى مازال قويا ويستطيع الوفاء بكل التزاماته معتمدا على نفسه وموارده .

وتعمد المستر كيف أن يذكر فى تقريره أنه يرجو المسئولين البريطانيين والأوروبيين أن يكفوا عن التباكى على الفلاح المصرى وأن كل ما يعنيهم من التدخل فى شئون مصر هو إنقاذها من البؤس والشقاء الذى يبحر فيه .

وقال إن الفلاح المصرى ليس أسوأ حالا من الفلاح الإيرلندى الذى يستنزف الملاك البريطانيون عرقه ودماؤه والذى لم يجد خلاصا إلا فى الهجرة الجماعية إلى الولايات المتحدة مهما تكبد الآلاف خلال الرحلة وأنه ليس أسوأ حالا من العامل الإنجليزى فى قلعة الثورة الصناعية فى بريطانيا حيث يعمل الأطفال والنساء والرجال فى جحيم من الاستغلال والاستعباد وأوصى المستر كيف بأن أفضل ما تفعله الدول الدائنة أن تمكن مصر من سداد ديونها معتمدة على نفسها ومواردها .

ولم يكن ذلك هو التقرير الذى انتظره دزرائيلى بل كان العكس تماما لما أراده ، وكان ما يتوقعه أن ينذر التقرير بالهوة العميقة التى تنحدر إليها مصر وأن على الدول الأوروبية بل على إنجلترا وحدها أن تسارع إلى انتشالها وأن تتبرع لجنة بريطانية أو أوروبية لكى تنتشلها وتنقذ ما يمكن انقاذه قبل أن تفلس تماما وكان إغراء الدول الشرقية بالاقتراض من الدول الأوروبية ثم افتعال أزمة حادة يبدأ منها التدخل والذى ينتهى بالحماية ثم السيطرة ، كان ذلك قد أصبح منهجا أوروبيا عاما فى السباق الاستعمارى على آسيا وإفريقيا والذى بلغ ذروته فى ذلك العصر .

وأخفى دزرائيلى التقرير ولم ينشره ثم أوحى إلى أحد أعضاء مجلس العموم أن يتقدم بسؤال أين تقرير المستر كيف عن المالية المصرية ولماذا لم ينشر ولم يتورع رئيس الوزراء عن أن يجيب بأنه كان يود أن ينشر التقرير لولا أن الخديو طلب إليه ألا يفعل .

وتفجر الموقف فى كل أسواق المال فى العواصم الأوروبية وتجمع الدائنون وحاملو الأسهم والسندات وهرعوا يطالبون حكوماتهم بالتدخل واستخلاص حقوقهم .

وأدرك الخديو الشرك الذى نصبه له دزرائيلى وعلق قائلا :
إنهم يحفرون قبرى .

وتذرعت بريطانيا بالضجة التى ثارت واقترحت إرسال لجنة ثنائية انجلو فرنسية تمثل الدائنين لدراسة الموقف واقتراح الحلول .. الحاسمة .

وتكونت اللجنة من اللورد جوشن البريطانى والمسيو جوبير الفرنسى وكان الأول من غلاة الاستعماريين المؤمنين بأن الله قد اختار بريطانيا لخلاص العالم وأن تحكم وتحكم حتى أمواج البحار.

وكان الثانى من سماسرة روتشيلد رائد المشروع الصهيونى والذى قام بتمويل المستوطنات الأولى .

وكان أول طلب تقدم به إلى الخديو ومثل أى طلبات أخرى عزل وزير المالية المصرى إسماعيل المفتش إن لم يكن نفيه من مصر .. ورضخ الخديو وتم نفيه إلى السودان ومصادرة أمواله .. وأحيط الإجراء بسيل من الأساطير والأهوال .

وكان الطلب الآخر هو تأليف لجنة دولية مصرية أوروبية لبحث نظام الحكم القائم وإقامة نظام «عصرى»

وحكومة مسئولة أمام مجلس نيابى يحد من السلطة الفردية .. ويواجه مشاكل البلاد ويستخلص الحلول . تم وضع أملاك الخديو الدائرة السنية تحت الوصاية وأن تساهم فى التسوية العامة .

ورشح لرئاسة اللجنة الجنرال جوردون البريطانى والذى كان معروفا باستقامته وصرامته ، ولذا استبدل بالمسيو فيردناد ديليسبس أشهر مغامرى العصر والذى نفذ مشروع قناة السويس وانتقل إلى مشروع قناة بنما ثم السجن بتهمة النصب والاحتيال .

وكان ممثل مصر ووكيل اللجنة رياض باشا راعى الاستبداد والاستغلال والاستنزاف الأول فى مصر ، وتمخضت اللجنة عن نظام جديد «إصلاحى» صدم الأمة بأكملها أن يتولى نوبار باشا «الأرمنى بائع البسطرمة» رئاسة الوزارة ، وأن يتولى رياض باشا وزارة الداخلية ونائبا للرئيس ثم أن يتولى وزارة المالية بريطانى هو السير ريفرز دبلسون وأن يتولى فرنسى هو المسيو دى بلبنير وزارة الأشغال العمومية حيث المشاريع والمناقصات والعطاءات ، وأدرك الخديو المغزى وأعلن أنهم يجردوننى من سلطتى

وثروتى مقدمة لعزلى» .

ولم يتمخض النظام الجديد سوى عن تفاقم المأساة .

كانت سنة ١٨٧٨ سنة عصيبة أشد السنوات وطأة واضطرابا منذ بدأت الأزمة وتفاقمت بعدها وتعاقبت الكوارث والنكبات فاض النيل فيضانا ، أغرق القرى والمحاصيل والمواشى وشرد مئات الآلاف من الفلاحين وفى العام التالى حدث العكس ونقص الفيضان نقصا مهولا بحيث عم القحط وتفشت المجاعة ونفق الزرع والحرث وشهد عام ١٨٧٩ وباء الطاعون البقرى الذى أهلك المواشى ثم تفشى داء الكوليرا الذى حصد الناس بالآلاف .

ولم تقف تلك النوائب والمصائب حائلا دون استبقاء الضرائب ودفع الأقساط كاملة وأصر القناصل وممثلو الدائنين وحملة السندات على استيفاء أقساطهم عن آخرها حتى صاح الخديو فى وجه القنصل الإنجليزى .

ماذا تريدون لم تبقوا فى مصر شيئا سوى الجلد على العظم .

كما كتب أديب إسحاق .

ولم يكن ممكنا أن تقف الأمة ساكنة مستسلمة بدأت الدورة الجديدة لمجلس شورى النواب كالعادة فى يوم ٣ يناير سنة ١٨٧٩ .

وكان الافتتاح يتم بطقوس مهيبة تقام فى القلعة ويفتتحه الخديو بحضور «الأمراء والذوات والعلماء والرؤساء الروحانيين الثلاث شيخ الإسلام وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود وقناصل الدول الأجنبية .

وكانت المدافع تطلق ويصطف الجنود على طول الطريق وتحتشد الجماهير لتشهد الاحتفال . وجرت التقاليد الشورية».

على أن يلقى جناب الخديو مقالة الافتتاح ثم ينصرف وتنعقد بعد ذلك لجنة الرد على خطاب الجناب الأفخم وتتكون من عشرة نواب يختارهم المجلس وحينما ينتهى من اعداد الرد تذهب إلى السراى حيث يقام احتفال مماثل يستمع فيه الخديو إلى الرد ويعودون بعد ذلك ليبدأ العمل .

وكان كل شئ يتم فى سلام منذ قيام المجلس سنة ١٨٦٦ ولكن اختلف الأمر فى تلك الدورة . وتولى إلقاء خطاب

الافتتاح النائب عبدالسلام المويلحى والذى برز إلى الساحة السياسية خلال الدورة السابقة واكتسب لقب «زعيم المعارضة» .

ونص خطابه :

«الجناب الأفخم نحن ممثلون الأمة المصرية والمدافعون عن حقوقها ومصالحها والتى هى فى نفس الوقت أهداف الحكومة نشكر الجناب الأفخم على عودة مجلس شورى النواب للانعقاد ونأمل أن يكون أول مهام المجلس مناقشة مشاكل المالية والأشغال العامة وكل المشاكل الأخرى التى تعنى المحافظة على مصالح الأمة وحقوقها ، إن خطاب سموكم يتفق مع روح العصر الجديد ويبعث الأمل فى الأمة والتى تتطلع أن تسترد مجدها الماضى وتصبح دولة قوية مهابة» .

وتولت صحيفة «الوطن» التى كان يرأس تحريرها ميخائيل عبدالسيد وكان لسان حال المواطنين الافصاح عما يعنيه خطاب الافتتاح باسلوب المهذب قالت تتطلع البلاد منذ زمن طويل إلى توطيد سلطات مجلس شورى النواب لأنه بغير ذلك لن تقوم أى حياة دستورية أو مسئولية وزارية ونحن نسأل أنفسنا إذا لم يكن الوزراء مسئولين مسئولية حقيقية أمام

مجلس النواب فأين تكون مسئوليتهم هل تكون أمام بريطانيا وفرنسا أو أمام حملة السندات والدائنين .

«إن أهم ما تحتاج إليه البلاد الآن هو برلمان حقيقى يوطد سيادة القانون ويقيم العدل ويسعى لترقية وتطوير النظم والمؤسسات ويوقظ وعى الناس وأن يدركوا أن الحكومات القائمة لاتمثلهم وأنها لا تخدم أحدا غير أطماع الدول الأجنبية» .

وكانت صحيفة «التايمس» البريطانية العتيدة ولسان حال «الامبراطورية» تهتم اهتماما خاصة بشئون مصر وأحوالها وتتابع تطور الأحداث بدقة وكثب .

تدل كل الدلائل أن دورة مجلس شورى النواب المقبلة سوف تكون عاصفة وأن النواب مصممون على أن يؤكدوا حقهم فى مناقشة المسائل المالية ومشكلة الديون خاصة ويصرح قادة الرأى العام هنا بأنه لا يعقل أن تستهلك خدمة الديون سبعة ملايين جنيه سنويا فى بلد كل إيراده لا يتجاوز تسعة ملايين وأن الوطأة تقع على أشد الأهالى فقرا وهم الفلاحون الذين لا يجدون القوت والموظفون الذين لا يتقاضون مرتباتهم لأشهر طويلة بينما يقبض الموظفون الأوروبيون

والبريطانيون مرتباتهم العالية بانتظام .

وكان مجلس شورى النواب قد تأسس سنة ١٨٦٦ وكان من أركان التحديث «الأساسية» في برنامج إسماعيل .

وقال رئيس الوزراء نوبار في حديث له مع وزير خارجية فرنسا .

إن مجلس شورى النواب المصرى يقف على أرض راسخة وقد تم اختيار النواب من مشايخ البلاد وبواسطة الشعب نفسه ولم تتدخل الحكومة سوى بالتصديق وأصبح على ذوى الشخصية والنفوذ أن يقدموا المشورة والتوصيات للمديرين حول حلول المشاكل والمشاريع العامة إنه برلمان حقيقى ومدرسة يتعلم عن طريقها الشعب ويتدرب على ممارسة السلطة وعلى ترقية شئونه وهو فى الوقت نفسه حلقة الاتصال والتفاعل بين الأهالي والحكومة .

وكان المجلس أداة إسماعيل الرئيسية فى تكوين طبقات وفئات (وسطى) وسترة يعتمد عليها برنامجه الطموح للتحديث ومرت مياه كثيرة تحت الجسر وانزوى المجلس واحتجب وانحسر تحت وطأة العواصف والأزمات ولكنه تشبث بالبقاء

وحينما تفاقمت الأحداث عادت الروح واسترد اعتباره وهب ينفض الصدأ وكتب ميخائيل عبدالسيد فى جريدته «الوطن» :

«إن مجلس شورى النواب الذى ينعقد منذ سنين طويلة لم يحدث أن ناقش أى مسألة مالية أو داخلية مهمة وقد ضاق معظم النواب ذرعا بذلك وهم يتساءلون كيف يمكن أن تدعى حكومة أنها مسئولة إذا لم تعترف لأعضاء مجلس النواب بحق مناقشتها ومحاسبتها إن أعضاء المجلس جميعا يشكون مر الشكوى من موقف النظار إزائهم ومن ازدرائهم للمجلس ويصرحون بأنهم طلبوا مرارا إلى المستر ريفرزدبلسون وزير المالية أن يحضر إلى المجلس يناقش معهم المشاكل المالية ولكنه كان يرفض فى كل مرة ولم يكن الوزير الفرنسى المسيو دى بلنير أفضل حالا وقد أرسل ذات يوم تقريرا إلي المجلس كانت بعض فقراته غير واضحة وحينما طلب المجلس حضوره لمناقشته أعتذر وطلب مهلة ثم مالبث أن أرسل إلى ناظر الداخلية يقول إنه يتمسك برأيه الوارد فى التقرير وأنه لن يحضر وهذا أمر لا يمكن أن يحدث فى أى برلمان فى أوروبا .

وبينما كان الجدل على أشده في أروقة المجلس وقاعاته

والحوار ملتهب على صفحات الجرائد «الوطنية» والتى ازدهرت مع تصاعد الأزمة - فوجئت البلاد بحدث طغى على كل شئ وانتفضت له الأمة وفزعت له الحكومة والقناصل شهدت شوارع القاهرة صباح يوم ٨ فبراير ١٨٧٩ مظاهرة عسكرية حاشدة تضم ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش يصحبهم عدد من أعضاء مجلس شورى النواب يشقون الطريق إلى ميدان لاظوغلى ومقر رئاسة الحكومة .

واجتمع المتظاهرون فى فناء المبنى وانتدبوا وفدا منهم ليقابل رئيس الوزراء ويقدموا له تظلمهم من قرار صدر قبل أيام يقضى بفصلهم جميعا من خدمة الجيش بعدما أمضوا ما بين ثمانى وأثنى عشر شهرا لا يتقاضون مرتباتهم .

وعاد الوفد ليبلغهم أن رئيس الوزراء نوبار ووزير المالية الإنجليزى ريفرزونسلون يرفضان مقابلتهم ويروا فى المظاهرة تمردا وخروجا على النظام العام ويأمرونهم بالانصراف على الفور .

وثارت ثائرة الضباط واندفعت جموعهم إلى الداخل واقتحموا مكتب رئيس الوزراء وانهالوا عليه (ركلا ولكما) وانطلق البعض يبحثون عن وزير المالية الإنجليزى لينال نفس

الجزاء . وسط هتافات مدوية بسقوط الوزارة الأجنبية ورئيسها (نوبار ستون) وسارع أحد الموظفين إلى قصر عابدين القريب لإبلاغ الخديو الذى انطلق على الفور فى عربة مكشوفة مع كتيبة من الحرس ثم صعد «أعزل» إلى حيث كان الضباط على وشك الاجهاز على رئيس الوزراء والوزير الإنجليزى وأنقذهما وهدأت ثائرة الضباط بعد تدخله ووقف فى الشرفة وألقى خطابا أعلى المحتشدين بالفناء وأعلن تعهده ببحث المشكلة وتسوية المطالب وإجلاء المبنى والانصراف ، وأطاع الجميع وانصرفوا وبدا الخديو وكأنه استرد كل سلطته وهيبته» وما إن عاد إلى القصر حتى استدعى كل القناصل فورا وأعلنهم أنه لا يستطيع أن يضمن الأمن والنظام فى البلاد إذا ما بقيت هذه الوزارة فى السلطة وأنه قرر إقالتها وعهد إلى ولى العهد الأمير محمد توفيق بتأليف وزارة جديدة .

وأوفى الخديو بوعده وأعيد الضباط جميعا إلى الخدمة وسارع وزير المالية بعقد قرض عاجل من بنك روتشيلد يسدد به كل رواتبهم ومتأخراتهم .

واحتفالا بما حدث أقام الخديو حفلا فاخرا فى القصر

دعا إليه كل ضباط الجيش المصرى من رتبة البكباشى وصافحهم جميعا وتلطف معهم فى الحديث وأكد لهم أنه لن يهنأ له بال حتى تتحقق كل مطالب الجهادية .

وأكد الخديو حسن نواياه بأن رد اعتبار عدد من كبار الضباط «الفلاحين» الذين استبعدوا واضطهدوا ونسبت إليهم مسئولية هزيمة منكرة فى حرب الحبشة - وبرئ المسئولون الحقيقيون راتب باشا الشركسى ومساعدوه من الضباط الأمريكيين .

وقرر تعيين القائمقام أحمد عرابى ياورا فى المعية وقائدا للفرقة الرابعة المشاة واللواء على الروبى ياورا فى المعية واللواء محمد النادى ياورا فى المعية وقائدا للفرقة الثانية مشاة .

وكان اسماعيل قد الصق بهم وصف «بتوع سعيد باشا» ورد عليه عرابى «احنا بتوع مصر» ولم يغفر له من البداية حتى النهاية !!

ووصف الوزير البريطانى ما حدث بأنه أسوأ ما حدث فى مصر طوال القرن التاسع عشر وينذر بكل الأخطار .

ولم تعترف الدولتان العظيمتان بكل ما حدث وأعلنتا فى مذكرة مشتركة شديدة اللهجة (إن إقالة وزارة نوبار باشا تعنى العودة إلى السلطة المطلقة واسترداد الخديو لطغيانه واستبداده القديم واطاحته بأول حكومة مسئولة تتولى السلطة فى البلاد) . ولم يكترث الخديو واهتزت البلاد من أدناها إلى أقصاها بما حدث وكان أهم مغزى وأثر «كشف الحادث للجهادية عن قوتها ومنذ اليوم أصبحت هى ومجلس شورى النواب أعمدة المعارضة الرئيسية» ، كما كتبت الوطن «كأنها تقرأ الغيب» .

وكان الجنرال ستون الأمريكي رئيس أركان حرب الجيش المصرى ورئيس لعبة الضباط الأمريكيين الذين استقدمهم اسماعيل لتحديث الجيش وكتب فيما بعد .

لم يكن فصل الضباط يهدف إلى التوفير فى الميزانية كما ادعى ريفرزويلسون ولكن هدفه كان تجريد الخديو من أى قوة يمكن أن يحتمى بها أو يدافع عن استقلال مصر وكانت مجرد بداية لتصفية الجيش عامة ثم الاسطول ثم إغلاق المدارس والمعاهد العسكرية بنفس الحجة وأن يتحول الجيش إلى قوة بوليس لحفظ الأمن لأن مصر فى رأيهم لا تحتاج إلى جيش .

استفز الانذار الثانى القنصل الأمريكى قارمان وكتب إلى واشنطن «لاشئ يبعث على السخرية والزراية مثل المذكرة الانجلوفرنسية وتباكيها على حكومة نوبار ووصفها بأنها كانت دستورية مسئولة وأول حكومة مسئولة تعرفها مصر وأقل ما يسمى به ذلك هو الفحش والفجور الصارخ كانت حكومة أقامها الأجانب بالأجانب وللأجانب ولم تكن تكترث بأحد سواهم ولكن لم تتورع بريطانيا بأن تصفها «بالماجناكارتا» المصرية وليس هناك زيف ونفاق وافتراء على الحقيقة يفوق ذلك» .

ولم يكترث الخديو بالمذكرة الثنائية وأصبح واثقا أن هناك من يحتمى به إذا وقعت ولم تلبث أن أمدته الظروف بالحدث الآخر الذى فاق كل ما قبله .

كانت الدورة البرلمانية تنفض عادة فى شهر مارس من كل عام وكان رئيس الوزراء أو وزير الداخلية يذهب وفق التقاليد الدستورية ويشكر النواب على ما قاموا به ويعلن فض الدورة وينصرف الجميع إلى قراهم ودوائرهم حتى الدورة المقبلة .

وذهب رياض باشا وزير الداخلية ونائب رئيس الوزراء وما إن بدأ في إلقاء خطاب حتى فوجئ بزعيم المعارضة المويلحى يقاطعه ويقف مخالفا الأصول والتقاليد المرعية ويعلن أن مجلس النواب خلال دورته الحالية لم يفعل شيئا ذا قيمة ولم يكن ذلك بسبب منه ولكن بسبب الحكومة وإصرار وزير المالية البريطانى ووزير الأشغال الفرنسى على رفض الحضور إلى المجلس والرد على أسئلة واستجوابات النواب وهو أمر يعطل شرعية بقائهم فى السلطة باسم حكومة دستورية مسئولة ولهذه الأسباب فإن المجلس سوف يظل منعقدا حتى ينظر فى كل المسائل التى يرى من حقه النظر فيها» .

وتعاقب الأعضاء على المنبر يعلنون تضامنهم مع زعيم المعارضة وتحولت الجلسة إلى عاصفة سياسية وارتبك الرجل الصارم قوى الشكمة الذى لم يكترث يوما بالمجلس والشورى ولم يملك غير أن يجمع أوراقه وينسحب» .

ودوى الحديث فى أرجاء البلاد واحتل الصفحات الأولى فى الجرائد ثم تناولته الصحف الأوروبية والبريطانية وعكف القناصل على تفسير مغزاه وآثاره .

وتصدرت «التايمس» البريطانية الجميع وقالت :

فوجئ الرأى العام فى مصر بتحول مجلس شورى النواب إلى برلمان حقيقى خلال هذه الدورة وأنه يصر على أن يمارس حقوقه وسلطاته كاملة ويرفض أى قيد عليها أو تنازل عن مستحقاتها بل يتشبث بكونه الممثل الشرعى للشعب والمنوط به الدفاع عن حقوقه وقد أثار ذلك أشد القلق لدى الحكومة ورأت تداركا للخطر قبل وقوعه أن تواجه مبكرة واستصدرت مرسوما بفض الدورة وذهب رياض باشا نائب رئيس النظار ورجل الحكومة القوى والذى لم يكن فى أى يوم من الأيام من المتعاطفين مع المجلس يحمل المرسوم بفض الدورة وألقى خطابا رقيقا امتدح فيه المجلس وأشاد بخدماته وجهوده وأعلن للأعضاء أنهم أدوا واجبهم على الوجه الأكمل وأن الوقت حان لكى يستريحوا من عناء العمل . وفوجئ رياض ولا ريب أنه لم يصدق عينيه وأذنيه حين وقف عضو بالمجلس منفعلا ليعلن باسم الأعضاء جميعا رفض مرسوم فض الدورة وأن الأعضاء على عكس ما يقول لم يفعلوا شيئا ولم يقوموا بأى عمل أو واجب مما يفترض أن يفعلوه وأن مهمة المجلس الأولى والأخيرة هى محاسبة الحكومة والرقابة على أعمالها ولكن شيئا من ذلك لم يحدث على الاطلاق وتتابع الأعضاء

على المنصة ليعلن كل منهم تلو الآخر إجماعهم على رفض القرار واستمرار المجلس وضرورة أن يخضع كل الوزراء مصريين أو أجانب لرقابة المجلس وأن يكونوا مسئولين أمامه مسئولية كاملة وأن على الحكومة أن تلتزم بأن تكون حكومة ديمقراطية حقيقية وليست مجرد شكل وقال أحدهم إن مهمة المجلس لم يتحقق منها شئ لسبب واحد هو أن الحكومة لا تعترف بالمجلس ولا تحترمه ولهذا قرر الأعضاء أن يعتصموا في المجلس وأن يظلوا فى حالة انعقاد حتى تتحقق كل مطالبهم .

واختتم مراسل «التايمس» البريطانية رسالته «لم يستطع رياض باشا أن يقوم بدور كردمويل فى مجلس العموم وبذلك أمكن لزعيم المعارضة أن يقوم بدور ميرابونى ملعب التنس» .

وكان الجنرال كردمويل قد اقتحم مجلس العموم البريطاني وأعلن حل وطرد الأعضاء واعتبر ذلك بداية للثورة البريطانية وكان ميرابو على العكس تحدى قرار الملك لويس السادس عشر بحل المجلس ، وانتقل الأعضاء إلى ملعب التنس حيث أطلق الشعار الذى سجل في التاريخ بداية الثورة الفرنسية .

«إننا هنا بإرادة الشعب ولن ننتقل إلا على أسنة الرماح» .

وتسربت أنباء بأن وزير المالية الإنجليزى ريفرز ويلسون يعد فى تكتم شديد مشروعا بإعلان إفلاس مصر ويضع الجميع أمام الأمر الواقع وأنه يدبر ذلك مع ممثلى الدائنين وحملة السندات والذين طالبوا به منذ البداية .

وهبت الصحف الوطنية وفضحت الذى سوف يضع المالية المصرية كاملة تحت تصرف الدول الأجنبية لكى تقوم بدور «السنديك المصفى» . وتتحول مصر إلى دولة مفلسة يتحكم فى مصيرها الدائنون وكتبت صحيفة «مرآة الشرق» .

«مهد فتح قناة السويس طريقا قويما للدول الأوربية تسللت فيه إلى البلاد الآسيوية وكان ذلك أقوى منبه لأنظارها ومحرك إلى التطلع لتملك تلك الأخطار وهم يعلمون أن القطر المصرى ووادى النيل هو السبيل الوحيد للتغلغل فى كبد تلك البلاد ولو قامت فيها حكومة وطنية وضعفت فيه الهيمنة الأجنبية لتعسر عليهم حينئذ نيل هذا المقصد الذى مازال نصب أعينهم جميعا بل ربما ساقهم أهل البلاد المصرية إلي نيله ومن ثم رأت الدول أنه لا فائدة من اللجاج فإن ذلك يمكن من إجراء

الاصلاحات فى البلاد ولم شعثها فعمدوا إلى مقاومة مشروعاتنا ومعارضة استقلالنا .

ونشرت الصحف مقتطفات من كتاب آثار الاهتمام فى الغرب والشرق بعنوان «الطريق إلى الهند» وبقلم إدوارد دايسى عميد الكتاب الاستعماريين وكان مهتما بمصر وكثير الذود وقال فيه :

«تسنح الآن فرصة يجب ألا نضيعها للاستيلاء على مصر لأن فرنسا وألمانيا منشغلتان ببعضهما منذ حرب السبعين وفرنسا فى أضعف فترات حياتها ولا يمكن أن تقف أمامنا» .

قيامة مصر

كانت اللجنة الثالثة عسكرية برئاسة شاهين باشا لوضع خطة دفاع محكمة لإعلان التعبئة العامة وإعدادا لصد التدخل الأجنبى إذا ما أقدمت عليه الدول .

وتقرر لدى الانتهاء من المشاريع الثلاثة أن يحملها ممثلون عن الأمة إلى الخديو ويطلبون إليه التصديق عليها والالتزام بها والبدء فى وضعها موضع التنفيذ وتقرر أيضا أنه إذا ما رفض أو تحايل أو أعتذر يعلن عزله وتتولى «سلطة وطنية» الحكم وتحقيق البرنامج .

ووصلت الأخبار إلى الخديو الذى لم يكن يفتقد العيون والأرصاد وأراد أن يسبق ويأخذ المبادرة وسارع إلى إصدار بيان للأمة أعلن فيه :

«لقد سعيت دائما لأن أحكم بواسطة حكومة دستورية ومجلس وزراء مسئول أمام برلمان منتخب ومازلت أرفض أى فكرة ترمى إلى العودة إلى الوراء وإلى نظام الحكم الفردى

وقد أقبل أن تكون هناك رقابة أوروبية على المالية المصرية ولكن بشرط أن تظل مالية البلاد فى أيد وطنية .

وحدد الخديو يوم ٧ إبريل لمقابلة «الوفد الوطنى» فى السراى ، وفوجيء الأعضاء لدى وصـــولهم بأن الخديو دعا حشدا ضخما من الأمراء والذوات والأعيان وأعضاء مجلس شورى النواب ثم كان قناصل الدول بلا استثناء .

وكـــان أكبـــر اجـتمـاع ضـمـتـه القـــاعـة الكبـرى فى السراى .

ووقف الخديو وألقى خطابا قال فيه :

«إن السخط يعم البلاد ووصلت الأمور إلى الحد الذى أصبح يتعين علىَّ أن أقوم بواجبى فى رفع الشدة عن الناس وذلك لا يتحقق إلا بإجراءات حاسمة وقد تقدم لى مشروع أجمعت عليه الأمة بكل طبقاتها وفئاتها ويعبر عن المطالب الرئيسية للبلاد وينص هذا المشروع فى أساسه وجوهره على الاحتجاج والرفض التام لإعلام إفلاس البلاد الذى تقدم به المستر ويلسون وزير المالية .

ولهذا قررت إعفاء الوزارة الحالية وأن تقوم وزارة مصرية

بحتة تكون مسئولة مسئولية حقيقية أمام مجلس نواب ينتخب انتخابا حرا وفق قانون انتخاب جديد.

وقد عهدت إلى محمد شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة .

وقد طلبت إلى هذا العدد الكبير من الشخصيات فى البلاد أن يشهدوا هذا الاجتماع ولعلهم يعطون القناصل أى معلومات يمكن أن يطلبونها ويجيبوهم عن أى استفسارات يريدون توجيهها حول حقيقة مشاعر الأمة الآن .

وبعد أن انتهى الخديو من خطابه وقف محمد شريف باشا وألقى كلمة قال فيها :

«لا محل للشك أن السخط يعم البلاد ويبلغ أقصى مداه ولسبب أساسى وهو المعاملة السيئة التى يلقاها أعضاء مجلس شورى النواب وآخرها فض دورة المجلس بغير استشارة الأعضاء والذى رأت فيه الأمة إهانة بالغة لا مثيل لها وقد تعاظم السخط وبلغت وطأة الألم أقصى حد حين تقدم المستر ويلسون بمشروعه لإعلان إفلاس البلاد وهو ما تعده الأمة أقصى وصمة عار يمكن أن تلحق بها وقد أجمعت

الأمة وصممت على ألا يحدث ذلك مهما كانت التضحية والجهد ولم يطلب المستر ويلسون إعلان إفلاس البلاد ولكن طلب أيضا إلغاء دين المقابلة مما يؤكد التحيز ضد الدين الوطنى ، ويضاعف بالطبع من أسباب السخط وقد أصبح مستحيلا على سمو الخديو أن يتجاهل مشاعر الأمة أو أن يقف فى وجه مشاريعها بل لم يعد لسموه أى خيار غير الاستجابة لإرادة الشعب والعمل على رفع الغبن والمعاناة وإذا لم يتم ذلك فلابد وأن تنتهى البلاد إلى الكارثة ».

واحتلت أنباء مصر المثيرة الصفحات الأولى فى الصحف الأوربية والبريطانية وبعناوين ضخمة لانقلاب فى مصر .. «الحزب الوطنى يستولى على السلطة».

وأعلن باسم اللجنة الوطنية التى أصبح اسمها فى أوروبا الحزب الوطنى عن فتح اكتتاب لسداد قسط الدين المستحق بعد شهر واحد فى مايو وقدره مليون ومائتى الف جنيه استرلينى وانهالت التبرعات حتى استوفى المبلغ كاملا .

ولم يلبث أن تشكلت لجنة وطنية تحت رئاسة اسماعيل باشا أبو جبل لجمع ما ينبغى من الأموال لتسوية الديون وقد استقر الرأى على أن تقوم الحكومة ببيع جميع السرايات

التى لا حاجة لها وأن تجتمع الوزارات والدواوين فى اثنين أو ثلاثة منها وكذلك بيع ما لا فائدة منه من البواخر والآلات البحرية فى السويس والإسكندرية وبولاق وتقدم إلى اللجنة العديد من البيت الخديوى مستعدين أن يجودوا بما بقى لهم من العقار وأسباب الترفيه لتقوى الحكومة على وعودها» .

وكتبت جريدة «التايمس» البريطانية :

«يثير الحزب الوطنى الذى استولى على السلطة فى انقلاب ٧ ابريل دهشة الجميع لحيويته وفعاليته وفى البدء أعتقد كثيرون أن أيامه معدودة ولكن إزاء روح المسئولية والجهد المتصل الذى يبديه كل الوزراء فإن تقدير الناس واحترامهم يتصاعد ويتضاعف وقد زاد منه السرعة التى تم بها الاكتتاب لسداد قسط الدين» .

وأيد القنصل البريطانى اللورد فيفيان جريدة «التايمس» فى أول رسالة بعد الانقلاب قال فيها :

«ليس من الحكمة فى شىء ولا من حسن السياسة الوقوف ضد هذه الحكومة أو الإصرار على عودة الوزيرين الأوروبيين

وأنني أؤكد وأصر على ألا يحدث أى ضغط ولابد أن نترك الفرصة الكاملة والعادلة لهذه الحكومة لكى تعمل وتنشط ويمكن أن تكون لنا رقابة مالية ولكن دون تدخل فى الشئون الداخلية وأن نكتفى بالترشيد والمشورة ونقد الأخطاء وقد أكد راغب باشا بما اشتهر عنه من الكفاءة والحيوية الخارقة وهو يؤدى عمله فى وزارة المالية بهمة وحماس ولا يؤجل أو يتهرب .

وتفانت الوزارة فى العمل وانتهى شريف باشا من إعداد الدستور وقانون الانتخاب واستكمل شاهين باشا خطط إعادة بناء الجيش والأسطول ووسائل الدفاع ووضع راغب باشا اللمسات الأخيرة للمشروع الوطنى لسداد الديون .

وبعث القنصل البريطانى برسالة أخرى يقول :

«لابد أن نمنح أقصى قدر من الثقة لحكومة شريف باشا التى أثبتت أنها تريد العمل بهمة وكفاءة للإصلاح العام وتسوية الديون وقد استطاعت بشجاعة ومقدرة فائقة أن توفى بكل التزاماتها المالية وفق الخطة التى وضعتها وقد وفرت كل المبالغ فى أقصر مدة وهو ما لم تستطع أن تقدمه أى حكومة قبلها ويساعدها فى ذلك قدرتها على جمع الاكتتاب من

أعضاء حزبها الوطنى» .

وعلقت جريدة «التايمس» على مشروع شريف باشا السياسى وقالت :

«ترسى هذه التشريعات أساسا راسخا وتقدم أفضل ما يمكن أن تتوطد به الحياة الدستورية وبما تحقق به كل ما تأمل منه البلاد من أمانى ورخاء وقد أصبح على الخديو الآن أن يواجه حزبا وطنيا فى السلطة يدعمه إجماع من الباشوات والضباط والعلماء وعلى هدف واحد هو أن مصر تستطيع أن تحكم نفسها وأن البرلمان يجب أن يكون السلطة العليا» .

كان الدستور الجديد وقانون الانتخاب نموذجا لأفضل قواعد الشورى وأحكام الحرية وقد قسمت البلاد إلى ١٢٠ دائرة منها عشرون دائرة للسودان وتقرر مبدأ الحصانة البرلمانية ومبدأ عدم تنفيذ القوانين واللوائح قبل التصديق عليها من النواب ومبدأ مسئولية الوزراء الكاملة أمام المجلس حق وحق النواب فى مناقشة ومراقبة وإقرار الايرادات والمصروفات والضرائب وطرق جباتها واقترح بعض النواب قانون محاكمة الوزراء .

وتقدم شاهين باشا بمشروعه الاستراتيجى ويتضمن زيادة عدد الجيش إلى ستين ألفا وإعادة كل الضباط الذين أحيلوا إلى الاستيداع وإعادة فتح المدارس العسكرية التى أعلنت وتضمنت خطة الدفاع إغلاق موانىء البحر الأبيض وردم قناة السويس وإغراق الأراضى وراء البحر الأبيض المتوسط واستنفار الجيوش عن بكرة أبيها للمقاومة وإعادة المناورات السنوية التى توقفت منذ حرب الحبشة .

ووسط الأعباء الوطنية والفرحة العامة بتباشير الخلاص ، فوجىء الخديو بإنذار مشترك من الدولتين .

يجب ألا يخالجكم أى شك فى أن إقالة الوزارة وإقصاء الوزيرين الأوروبيين أمر مرفوض تماما . من قبل الدولتين وإذا ما أصررتم على ذلك فإن السمة المحتومة سوف تكون عزلكم وخلعكم ونفيكم من مصر ولا مفر من أن يعود كل شىء إلى ما كان عليه فورا » .

ورفض الخديو المذكرة ، وهزأ بها وأعلن للقنصل أنه تسلم عرشه من جلالة السلطان وورثه عن أجداده ولا أحد يملك حق خلعه سواه ..

وتسربت الأنباء وهال الأمة ما حدث ولم تصدق وكتب أديب إسحاق في جريدته .

«حينما فزعنا إلى الرفعة ونشطنا من عقال العبودية وتضافرنا على استرجاع ما سلبناه أنكر علينا ذلك سادتنا الأوروبيون ظنا منهم أننا لا ندرك معنى هذا الحق الظاهر وأننا من القصر وهم بمنزلة الأوصياء وبعثوا إلينا برسلهم ينذرون بالعذاب ويتوعدون بالعقاب وكان أن أتى جناب المسيو تريكو قنصل فرنسا تبين لنا نبأها العظيم وهو أن دولتى فرنسا وبريطانيا ترغبان إلى الجناب العالى أن يتنازل لولى عهده .

ونحن ننبه الدولتين إلى أنهما لن يجعلا من أهل هذا البلد أرقاء تطلب منهم ولا تعترف لهم بالحقوق إن شعلة الحرية إذا سرت في خواطر الأمم فلابد أن يمتد طريقها امتداد لا سبيل إلى إطفائه» .

وكتب جون نبيه مراسل مجلة «السيبكل» السويسرية الاشتراكية :

«رأت الدولتان ضرورة التعجيل بالقضاء على التجربة بدلا

من تشجيعها والوقوف بها واعتبرت الدولتان أن قيام اسماعيل بالاشتراك مع نواب الأمة فى وضع نظام دستورى صحيح وخطة مالية دقيقة تتضمن سداد الديون اعتبرنا ذلك إهانة لا يمكن السكوت عليها لأنها سوف تقضى على نفوذهما فى مصر وتجهض مشاريعهما».

وعهد بالمهمة إلى اللورد دوفرين السفير البريطانى فى اسطنبول وأبرع ثعالب الامبراطورية ، ولم يجد عناء فى استصدار فرمان من السلطان بخلع خديو مصر ونفيه من البلاد .

كان جلالته قد بطش بزعيم الإصلاح الدستورى مدحت باشا والذى يدين له بالعرش وأطاح بالتجربة قصيرة العمر ونفاه إلى شبه الجزيرة العربية حيث مات خنقا على الطريقة العثمانية ولم يكن ليسمح بقيام تجربة أبعد وأعمق فى مصر جوهرة الامبراطورية فضلا عن كونه يشك مثل اسلافه فى «أولاد محمد على» وحكمهم الدفين فى إقامة الدولة العربية الكبرى ونقل العاصمة إلى القاهرة بدلا من اسطنبول .

وعارض بقايا الإصلاحيون فى بلاط السلطان فى تولية محمد توفيق ، ورسخوا بدله امبراطوريا وصيا كان يقيم

منفيا فى اسطنبول هو إبراهيم حليم ولكن أصر دوفرين على تولية محمد توفيق ثم أضاف شرطا إلى فرمان التولية أن يخفض الجيش المصرى إلى الحد الذى قررته الدول سنة ١٨٤٠ وهو ألا يتجاوز ثمانية عشر ألفا ووافق جلالة السلطان وعلى الأصح - رضخ» . وتسلم الخديو الفرمان هادئا ساكنا وفي يوم الرحيل «أصطفت العساكر والجماهير على الجانبين مودعة أميرها السابق والموسيقى العسكرية تصدح ألحان الوداع حتى وصل الموكب إلى المحطة ووقف الجناب العالى مودعاً والده وعيناه مغرورقتان بالدموع».

وكان من اسعد الناس بما انتهت إليه الأحداث العضو البريطانى فى صندوق الدين والذى كان مهمينا عليه بل وأصبح الصندوق نفسه . وكان دوره حاسم فيما تم .. فكان الذراع الأيمن لوزير المالية ويلسون وصرح ايفلين بارغ «متشفيا» أن السلطة انتقلت كاملة إلينا».

ولم يخالجه شك أن المهمة قد انتهت خاصة بعدما طلب القنصل البريطانى اللورد فيفيان العودة إلى لندن منذرا بسوء العواقب للسياسة «الخرقاء» .

وكان منصب السكرتير المالى لحكومة الهند والذى يعادل

منصب الوزير خاليا وتطلع إليه ايفلين بارنج بعدما اطمأن أن مصر أصبحت على مرمى خطوات من الضم إلى فلك الامبراطورية .

أقيمت الأفراح أربعين ليلة إلا ليلة احتفالا بالخديو الجديد وكما تقضى التقاليد .

وكان الرأى السائد عن ولى العهد أنه منحاز للوطنيين وأنه صديق حميم لأبى الوطنية والدستور محمد شريف باشا ويحتذى به ويتعلم منه وأنه تلميذ مخلص ملازم للأستاذ كما كان يدعى جمال الدين الأفغانى .

وقد امتدحه الأستاذ وزكاه للقنصل الفرنسى «البارون دى رينج» وكان طرازا جديداً وفريدا بين القناصل وكان ارستقراطيا فرنسيا متحيزا ومتحمسا للوطنيين وأنه سوف يكون خيرا على البلاد ولن يكرر أخطاء أبيه وخطاياه وأقنع شريف باشا أن يذهب خلال تفاقم الأزمة ويسير على أبيه أن يتنازل له طواعية عن العرش ويتفادى ما أشيع من إرغام الدولة له على التنازل .

ولدى توليته بدأ بإذاعة بيان إلى رئيس مجلس النظار كان

نصه :

«إن العناية الإلهية سلمت زمام الحكومة المصرية إلى يدينا فضلا منها وإحسانا وهذه نعمة لا يؤدى شكرها إلا بحسن القيام بأداء وظائف ذلك المقام .

وأن حكومة الخديو يلزم أن تكون شورية وأن يكون نظارها مسئولين :

وقد اتخذت هذه القاعدة مسلكا لا تحول عنه وعلينا تأييد مجلس شورى النواب وتوسيع لوائحه ليكون له الاقتدار فى تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الأمور المتعلقة بها ونحسب مقتضيات الأحوال وأننى معتقد فى مأمورى الحكومة المصرية الصدق والاستقامة ومؤمل أن يسيروا فى المستقبل بالسيرة المرضية ويعرفون أن معظم الغنى غنى النفس وأعلى الشرف شرف العفة وأغنى الحلى حلى الاستقامة وأقوم الطريق طريق الحق والعدالة ».

وكان مشروع الدستور وقانون الانتخاب الجديدين وكل مشارع الإصلاح على مكتب سموه تنتظر التوقيع ولكن تعاقبت الأيام ثم الأسابيع ولم يتم ذلك .

وخرجت صحيفة « الريفورم » الفرنسية المنحازة للوطنيين والتى كانت «وثيقة المصادر ولا تفتقر إلى الجرأة» وقالت :

«يبدو أن اتجاه الحكومة إلى تحقيق الديمقراطية يثير الدوائر الأجنبية ولا يرضيها وأنها أخذت تدير المؤامرات لكى تبطل المشروع وتعرقل السير فيه وتكره هذه الدوائر كراهية التحريم أن يتحرر المصرى وأن يصبح مواطنا مستقلا وأن يعرف حقوقه ويطالب بها ويدرك واجباته ويقوم عليها ولكننا لا نزال نأمل فى همة الخديو المعظم وأنه لن يتراجع ولن يحرم البلاد من الحقوق التى تطالب بها ومن الأمانى الدستورية التى استكملت لوائحها والتى تحمى بها الأمة من مصائب وثوابت تدخل الأجانب» .

وحينما ضاق رئيس الوزراء ذرعا بالماطلة واجهه وطلب إليه تفسيرا وفوجىء أن لم يكن فجع به يرد بوقاحة «إن الأمة ليست مهيأة بعد للحياة الثورية وإن ما تحتاج إليه البلاد هو يد قوية تحسم الأمور المعقدة والمشكلات العسيرة ولا تضيع الوقت فى الجدل والنقاش العقيم وإن مجلس النواب والانتخاب ليست غير ديكور مسرحى يعجبك وتحب أن

تتباهى به ولكنه لا يصلح للبلاد وسوف أتولى السلطة كاملة».

ولم يجد ما يمكن أن يسرى عنه غير أن يصب سخطه على القنصلية البريطانية والتى لم يشك أنها وراء ما حدث وبعث برسالة «إنى آسف أشد الأسف كمصرى للعودة إلى نظام الحكم المطلق وربما كان هناك كثيرون داخل السراى وخارجها يفيضون طربا لما حدث ويرون فيه انتصارا لمبادئهم ومصالحهم الأنانية ولكننى أحب أن أؤكد لكم أن عودة نظام الحكم المطلق فى مصر الآن لن يؤدى إلا إلى الكارثة».

وفى اليوم التالى بعث باستقالته إلى الخديو .. وكان يستقبل كل قناصل الدول الأجنبية والذين كانوا يهنئونه على الخطوة الشجاعة (وبدأ لو كان الأمر متفقا عليه من قبل) .

وكشف جون نينه مراسل مجلة «السيبكل» والذى صب روحه قلبا وقالبا مع الوطنيين الحقيقة عارية وكتب (فى الواقع وحقيقة الأمر لم ينتقل الحكم فى مصر إلى الفرد ولكن إلى القناصل ولن يعدو الخديو أن يكون مخلب قط ومجرد واجهة يمارسون السلطة وراءها ولن يصدر بعد الآن قرار صغير أو كبير قبل أن يصدق عليه قنصلا بريطانيا وفرنسا هذا إن لم

يضعا القرار أولا) .

ونصحت الحكومتان سمو الخديو أن يعدل عن قراره بتولى السلطة كاملة وأن يرسل فى استدعاء رياض باشا وكان قد هرب إلى الخارج بعد انقلاب ٨ ابريل وانضم إلى نوبار باشا فى دعوة بريطانيا للتدخل المباشر قبل أن يصبح ذلك مستحيلا واستجاب على الفور .

وكان أول قرار اتخذته الوزارة إبعاد «رأس الفتنة» فى البلاد الشيخ جمال الدين الأفغانى» .

وكان التنفيذ غاية فى التنكيل إذ قبض عليه ليلة السادس من رمضان عام ١٢٩٦ الرابع والعشرين من أغسطس ١٨٧٩ ومعه خادمه الأمين عارف أبو تراب وحجزا فى الضبطية ولم يتمكن حتى من استحضار ملابسه وحمل فى الصباح فى عربة مقفلة إلى محطة السكك الحديدية ومنها نقل تحت الحراسة الشديدة إلى السويس وأنزل منها إلى باخرة أقلته إلى الهند حيث الزمته الحكومة البريطانية هناك بالإقامة الجبرية» .

وفى اليوم التالى أصدرت الحكومة بيانا طويلا مقنعا

الزمت كل الصحف بنشره وقال :

«إذا كان الأمن والأمان والراحة والاطمئنان يتوقف عليهما تمام العمران في الممالك والبلدان وأن من أنجح الأبواب وأصح الأسباب التي تحتاج إليها الممالك في سلوكها قطع دابر المفسدين الساعين فيما يضر الدنيا والدين ويكون ذرعة للطائشين المتظاهرين بين الناس بمظهر الحرية بدون أساس البادين ذلك على غير شرع وأساس ثابت وإما هو مجرد خزعبلات وترهات وإشراك وأحبولات نصبوها لاقتناص أمثالهم السفهاء والجهلاء» .

وكان سمو الخديو قد أعلن على مسمع من جمهور كبير ذهب لتهنئته على العرش وعلى رأسهم جمال الدين (إنك أنت موضع أملي في مصر أيها السيد جمال الدين) .

ورد عليه (إن قبلتم نصح هذا المخلص لكم لأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد على طريق الشورى وتأمرون بإجراء انتخاب مجلس نواب يسن القوانين ويقوم على تنفيذها باسمكم وإرادتكم ويكون ذلك أثبت لعزتكم وأقوم لسلطتكم ولكنه لم يتورع عن فعلته الشنعاء.

وكانت تصفية الحركة الدستورية التى تزعمها شريف باشا ثم تصفية الثورة الروحية الفكرية التى حمل شعلتها جمال الدين ، مقدمة لتصفية القوة الجديدة الأشد خطرا وهى الجيش ، وكان ظهوره المفاجىء على الساحة السياسية (أسوأ ما حدث فى القرن التاسع عشر) كما قال ريفرز ويلسون وأصبح الهدف الأول لوزارة رياض .

وكتب الريفورم الفرنسية :

«شكل رياض وزارة من رجال العهد القديم معظمها من الباشوات الشراكسة المعادين للوطنيين والدستوريين وتميز من بينهم وزير الحربية عثمان رفقى والذى كان قائدا فى حرب الحبشة وعرف بكراهيته الشديدة للضباط الفلاحين» ، وألقى تبعة الهزيمة عليهم وألح على محاكمتهم وفصلهم ووصفت «الريفورم» الفرنسية رئيس الوزراء الجديد بأنه «منحاز» تماما للأجانب وعلى درجة كبيرة من الصلف ومن الكراهية والاحتقار للمصريين ويعتقد أن الكرباح أصلح أداة لحكم الفلاحين وقد استطاع فى أقصر وقت وأدق الظروف وأخطرها أن يعيد البلاد إلى أسوأ تراث الماضى وجند جيشا من الجواسيس لتعقب زعماء المعارضة».

وقـرع الوطنيـون والأحـرار كل أجـراس الخطر ، وأنه لابد من التعبئة والتنظيم لدفع المصير المظلم الذى تنزلق إليه البلاد خـاصـة بعد أن مـضي عـثمـان رفـقي باشـا نـاظر الجـهـادية فى سـيـاسـة التـفـريق والاسـتـخـفـاف بالعنصـر الوطـني وشـرع في سن قـانون لعـدم الترقي من تـحت السـلاح ليتمكن من النكاية بأبناء الوطن وحـرمـانهم من الرتب وجـعلهم انفارا تحت تسلط الأتراك والجـراكسـة . ثم أصـدر أمـرا بإحالة عـبـد العـال بك حلمي اميرالاى السودان علي ديوان الجـهـادية ليكون مـعاونا فـيـه وكـان عـمـره أنذاك أربعـين عـامـا ليس إلا وجـعل بدله خورشـيد نعمان الجركسي وعمره ٦٥ عـاما . وضـعيف البـصـر لا يقـوى على الحـركـات العـسكرية وأصـدر أمـرا آخـر بوقـف أحـمد عبد الغـفـار قـائمـقام الشـوري ورتب بدلا منه جـركـسـيا آخر .. كما قال الأميرلاي أحمد عرابى :

وأعلن فى نوفمبر سنة ١٨٧٩ ميلاد أول حزب سياسي فى مصر .

وحينمـا أقيل محمد شـريف باشـا من الوزارة وحينمـا نفي جـمـال الدين الأفـغـانى وتولى ريـاض باشـا رئاسـة مـجلس النظار وتـولى حـسـين رفـقـى باشـا نظارة الحـربية وتم تصـفـيـة

الضباط الفلاحين والغيت الترقية ايقن إيفلين بارخ أن مهمته قد تكللت بالنجاح وبما فاق كل تقديراته ، وأنه يستطيع أن يغادر مصر مطمئنا وأن يتسلم منصبه الجديد الرفيع عن جدارة ولم يكترث لما شاع عن قيام حزب سياسى معارض ولم يخالجه شك أنها نزوة عابرة يائسة سوف تذهب مع الريح .. ومد فى اقامته ليشهد ميلاد الحزب المزعوم وكان طبيعياً أن تتم اجتماعات عديدة بين أقطاب انقلاب ابريل ، وكل من يعنيهم مصير البلاد ، لمواجهة الخديو الجديد الذى نقض كل العهود وتنكر لكل مشاريع الإصلاح ورئيس النظار أشهر الساسة رجعية وولاء للأجانب .

وعقد الاجتماع فى حلوان ، وكانت يومئذ ضاحية بعيدة عن القاهرة ، وعن أعين الجواسيس الذين انبثوا فى كل مكان . وتصدر الاجتماع محمد شريف ذو المكانة الرفيعة والشهرة الواسعة والملقب دائما بأبو الوطنية والدستور وراغب باشا اكفأ وزير مالية مصرى وصاحب المشروع الوطنى لسداد الديون وشاهين باشا وزير الجهادية والبحرية وواضع المشروع الوطنى لمواجهة أى تدخل واكتمل الاجتماع بحضور محمد سلطان باشا ابو سلطان ملك الصعيد ذو الشهرة

المدوية فى دوائر الصعيد ».

وانتهى المجتمعون إلى أن الحل يبدأ بتكوين حزب سياسى على نسق الأحزاب الأوروبية يرسم السياسات ويضع الخطط والمشاريع ويوقظ الأمة ويجمعها حولها ويقود المواجهة ومعركة المصير وتقرر أن يعلن ميلاد الحزب للأمة فى منشور سرى يطبع ويوزع سرا باللغتين العربية والفرنسية وفى الداخل والخارج .

وتم ذلك وفوجئت العاصمة الحكومة والأهالى بالمنشور يوزع فيغمر المدينة . وبالطبع يثير الفزع لدى المسئولين والحماس لدى الأغلبية الوطنية .. كان الحدث الأول من نوعه .. ربما فى الشرق عامة وجاء فيه :

«تأسس الحزب الوطنى المصرى وقام لينقذ البلاد من الهوة السحيقة التى تردت إليها تحت وطأة المرابين والسماسرة والمستبدين الذين استولوا على ما ماليتها ونهبوا ثروتها واحتلوا بغير حق مواردها .

وقام الحزب ليواجه الدول الأجنبية التى فرضت على مصر حكومة لا تمت إليها بصلة أو نسب ولا يرجى منها للبلاد

وتبدأ بتوحيدها فى دين عام وأن تخفض فائدته إلى ٤٪ وتضمن الأمة كلها سداده».

ولقد عقدت مصر العزم على الوفاء بهذه الديون حتى آخر قرش فيها وهى تثق ثقة تامة فى قدرتها على ذلك ولكن بشرط واحد هو أن تتركها الدول الأجنبية حرة فى إدارة شئونها وفى تنفيذ الإصلاحات التى ترى أن البلاد فى حاجة إليها ولا تطلب شيئاً آخر .

مؤامرة الاحتلال لتزييف الوعى
الاستعمار البريطانى يكتب تاريخ مصر

واختتم رئيس الوزراء خطابه مؤكدا :

أن الاحتلال لن يتجاوز المدة الضرورية لتوطيد الشرعية ولن يؤدى إلى أن تنضم مصر أبدا بل سوف نحرص أشد الحرص على ألا يكتسب أى صفة دوام واستمرار.

ولم يلبث الرأى العام الأوروبى بعد قليل أن دهش وفوجيء بانتداب اللورد دوفرين السفير البريطاني في اسطنبول ومهندس الاحتلال الأول للسفر إلي مصر علي رأس بعثة بريطانية لدراسة الأوضاع ووضع تقرير وبرنامج إصلاح واستقرار .

وتساءلت الصحف الأوروبية خاصة الفرنسية، عما يعنيه ذلك ولماذا لايترك للشرعية التى توطدت سلطتها أن تمارس أول حقوقها وهو تقرير النظم والمصير.

ووجد دوفرين أن عليه أن يطمئن الرأى العام الأوروبى

والفرنسى خاصة الذى كان قلقه يتصاعد يوما بعد يوم وصرح قبل سفره إلى مصر :

«ليس لدينا أى رغبة فى الاحتفاظ بالسلطة التى ألت إلينا فى مصر وكل ما نريده هو أن نهيىء للمصريين كل أسباب الرقى والتقدم وأن نغرس فى أرض مصر بذور الحرية حتى تقوم نظم مستنيرة حكيمة وأن تبعث الثقة وتكفل الحرية والعدالة وأن يتولاها رجال يتميزون بالكفاءة والنزاهة وهذا كل ما نرى أنه واجبنا نحو مصر».

وقضى اللورد مدة أطول مما توقع أحد وانهمك مع رئيس مجلس النظار محمد شريف باشا والذى تفانى فى الولاء وتم وضع نظام جديد شامل للانقاذ والخلاص وأصبح «تقرير دوفرين» دستور العهد الجديد وجاء فى مقدمته:

«إذا ما طالعنا تاريخ مصر سوف نكتشف بلا عناء أنه كان من أصعب الأمور إن لم يكن من المستحيل أن تقوم فى مصر حكومة نزيهة عادلة وذلك أن كل الذين حكموها منذ أن كان لها تاريخ كانوا أجانب غرباء تعاقبوا على قهر الشعب وإذلاله ولم يقدموا من أساليب الحكم إلا ما كان ظالما قاهرا طاغيا فاسدا ولا يذكر التاريخ أى حقبة أو عصر عرف فيه

المصريون طعم الحيرة، وكان عليهم أن يعيشوا تاريخيهم كله أذلاء حتى تعساء مستعمرين مستعبدين.

بزغ لهم فجر جديد وذلك حين اجمعت الدول الأوروبية على أن الوقت قد حان لكى تقوم بإنقاذ هذا البلد وانتشاله وإصلاح حاله.

وأكد التقرير تفاءله بالمستقبل وذلك لتوافر أول المقومات وهو الأمير الجالس على العرش وهو حاكم محبوب من شعبه حريص على استقلال بلاده مؤمن بحرية التجارة والحضارة الحديثة، متمسك بالحكم الدستورى فضلا عن شخصية ذات أخلاق وخصال مهذبة بصفة متواضعة لأقصى حد.

وكان التقرير يتضمن تصفية شاملة لكل آثار الثورة العرابية، ويكاد يكون نسخة من النظم السائدة فى ولايات الهند البريطانية.

ودهش الرأى العام الأوروبى مرة ثانية وفوجيء بانتداب السير ايفلين بارنج السكرتير المالى لحكومة الهند ليكون أول قنصل عام بريطانى وأن تكون مهمته ضمان تنفيذ برنامج دوفرين.

وكـان يعـرف مـصـر جـيـدا ، على مـدى ثلاث سنوات مـضطربة بالأحـداث ، وتابع مـا تلاها، ولكن عـاد وكـأنه ينزل بها لأول مرة ، وأدلى بأول حديث له قائلا :

إننى سـعـيـد بالمنصب وسـوف تكون مـهـمـتى هي إرشـاد الحكومة البريطانية إلى أفضل النظم لإدارة بلد كان عليها أن تحكمـه رغم إرادتـهـا وفـى لحظة غـيـبوبة سـيـاسـيـة ولاتعـرف الكثـيـر عنه وسـوف ينصب كل جـهـدى على انتـشـال ذلك البلد المقـهـور الذليل الذى سقط فى أعمـاق هـوة سـحـيقة حتى القـاع وأن أرفعه إلى مصاف البشر لأول مرة.

وأضـاف بلا حياء أو حرج :

لقد عرفت من أول كتـاب قرأته عن مصـر أن المصرى لم يتغير فى شىء وأنه يظل على نفس الحـال التى كان عليها منذ خـمـسـة آلاف عـام ولا فـرق بين الفـلاح المعـاصـر وآخـر على جدران مـعبد الكرنك وأن المدنية لن تصل إلي هذا الفلاح قبل ألف عـام أخـرى وأعـتـقـد أن الحظ قـد ابتـسـم لهـم وأرسل بريطانيا لكى تغير هذا الرأى ولست بائسا من أننا سوف نرد لهم إنسـانيتـهـم وسوف يـذوقون طعم الحرية والعدالة لأول مـرة فى تاريـخـهـم وسـوف يدركـون أن ذلك حق من حـقـوقـهـم.. إن

مـصـر بالنسـبـة لى تـعنى أولا وأخـيـرا الفـلاحين الذين هم الغـالبـيـة العظمى من أهلها وأحـمل لهم، فى نفـسى عطفـا شديدا لتعاستهم الصارخة.

كان الفرق شاسعا واسعا بينه وبين رئيس الوزراء ولكنه لم يكترث واختتم بيانه الأول :

إنهم شعب مقهور كما لم يقهر أى شعب آخر فى التاريخ وقـد توالى عليـهم بلا انقطاع غـزاة وحكام أجـانب طـغـاة مستبدون مستغلون وتعاقب عليهم الفرس والرومان واليونان والعرب والأتراك والفرنسيون موكب حاشد ولكن مهما تغير الحكم إلا أن الشعب ظل على حاله إن لم يتضاعف بؤسه وشقاؤه وقد وصل القهر إلى ذروته فى هذا العصر على يد الباشوات الأتراك الذين فاق طغيانهم وبطشهم كل الذين سبقوهم.

وأراد إلى جانب تصريحاته للصحف الرئيسية والجادة أن يجتذب الصحافة الصفراء التى شاعت وذاعت وسادت فى ذلك العصر وروى :

«لم يعرف التاريخ عامة حكاما أشد همجية ووحشية من

موكب الخديويين الذين تعاقبوا على من سبقهم من الحكام والطغاة وحدث أن أحدهم . عباس الأول - ضبط جارية تدخن في الحريم فأمر باغلاق فمها بالخيط والإبرة وألقى بها حتى ماتت جوعا. وذات يوم آخر رأى خادما يضرب كلبه المفضل فأمر بأن يموت رجما بالحجارة.. ونفذ الحكم، وخلفه الخديو سعيد وذات يوم كان فى رحلة على ظهر باخرة فى النيل، مع بعض الضيوف ورأى عند الغروب إحدى أشجار النخيل وقد تكون عليها ثمار البلح، وقال لضيوفه انظروا الفلاح على قمة النخلة، ولكنهم نفوا أن يكون فلاحا بل ثمار البلح، وأمسك بالبندقية وأطلق عيارا سقط بعده الفلاح ميتا، وقهقه قائلا :

«صدقونى أنا على حق دائما وفاق الأفنان فى السعار وسفك الدماء خلفه إسماعيل وذات يوم ظهر مشعوذ فى إحدى قرى الصعيد وانتشرت دعوته والتف حوله الناس وأرسل إسماعيل فرقة عسكرية حاصرت القرية ثم اشعلت فيها حريقا كبيرا، وقتلت كل من حاول الفرار حتى ابيدت القرية عن آخرها.

وطمأن جنابه المصريين أن ذلك لن يتكرر وذلك لأن الامبراطورية الرومانية كانت أعظم الامبراطوريات فى التاريخ

القديم ولكنها سخرت العالم كله لمصلحة روما، أما الامبراطورية البريطانية أعظم الامبراطوريات قد عاد حديثا فإنها تسخر كل شيء لمصلحة الشعوب التى تحكمها.. وسوف ينعم المصريون تماما مثل باقي الشعوب، ويطبق عليهم العدل المطلق الذى تقضى به الأخلاق المسيحية»!!.

وكان هناك شاهد عيان «وعدل» عاش الأحداث قبل الاحتلال وبعده وتعاطف قلبا وقالبا مع المصريين، وسجل ما رآه فى كتاب شهير بعنوان «الغدر بمصر» وقال المستر فارمان:

«استتب الاحتلال العسكرى خلال الصيف والخريف وبدا منذ البداية أنه احتلال دائم فقد ساد الخضوع التام وأصبح بقاء الخديو واستمراره على عرشه مرهونا بتوقيعه على الأوراق التى تقدم له دون أى نقد أو اعتراض تماما كما ينفذ الجندى فى الجيش أوامر رؤسائه.

وتساءل كثيرون لماذا لاتخلع بريطانيا القناع الذى لا يخدع أحدا وتضم مصر وتحكمها كولاية بريطانية وكان هناك كثيرون من البريطانيين يرون محاكمة عرابى محاكمة عسكرية وإعدامه وإعلان الحماية على مصر وضمها على الفور وقد

تقـدم ثلاثة آلاف أوروبى مـن المقيـمين يطالبـون بذلك واتضح فيما بعد أن القنصل الجديد ايفلين بارنج كان من أنصار ذلك الرأى ولكن رؤي فى النهاية أنه من الأفضل أن ينفذ الأهداف البريطانية مصريون يتكلمون لغة البلاد ويدينون بدينها وأن تبدو بريطانيا المنفذ المجرد من الأغراض.

وأصـر القنصل العـام الجـديد الذى عـاش ثلاث سنوات مـضطربة من الأحـداث والغـمس وكـان طرفـا فـيـهـا وتشـبث بمقولاته وهى مقولات لفقها وزيفها كشافة الاستعمار» من مستشرقين ومبشرين سخرهم لأخطر المهام وهى تجريد شعوب الشرق من متونها الروحية والحضارية أولا وتسفيه وتشويه عقائدها ولغاتها وتراثها عامة وذلك لتستقبل وترحب وتحمد الله أن بعث لها بمنقذين يحملون الحضارة الصحيحة «الحديثة» وتعترف لهم بالجميل «الأبدى» .

وقال الزعيم الهندى جواهر لال نهرو:

(إن أول وأخطر مـا يفعله الاسـتعـمـار هو إعـادة كـتابة تاريخنا واقناعنا به وأول ما تبدأ به هو تصـحيح ذلك الزيف) وقد عكف نهرو فى فترة سجنه الطويل ومعه رفيق الكفاح أبو الكلام أزاد على كتابة تاريخ الهند منذ فجر التاريخ حتى

بزوغ الحركة الوطنية وفند فيه تاريخ الهند كما كتبه مؤرخو جامعة لمبريدج والذى يلخص تاريخ الهند فى الف عام من الاستعمار الاسلامى انتهت بالتحرير على يد بريطانيا .

وعلى هذا المنوال أجمل القنصل الجديد في مصر «ايفلين بارنج» تاريخها بأنه سلسلة متصلة محكمة لم تنقطع من الاستعباد والاسترقاق والاستغلال بلغت أوجها وذروة وحشيتها على يد «الخديويين» المعاصرين وذلك كما جاء فى أول كتاب وآخر كتاب قرأه عن مصر ولم يذكر أى تفاصيل.

وكان اكتشاف الحضارة الفرعونية أحد أعظم الاكتشافات فى القرن التاسع عشر وقد كان رواده علماء الحملة الفرنسية الذين صحبوا نابليون وسجلوا ما عثروا عليه فى كتاب «وصف مصر» والذى انكبت أوروبا كلها على دراسته واستطاع شمبليون وبتشجيع من محمد على أن يفك أسرار اللغة الهيروغليفية وتفتح العالم على أحد أثمن كنوز الإنسانية، وضاعف الخديو إسماعيل الاهتمام وأنشأ المتحف المصرى ومدرسة «الانجولوجيا» أى المصريات وتخرج فيها عدد من أنبغ العلماء والمكتشفين المصريين بهروا العالم كله بالاكتشاف وبما قدمته الحضارة الفرعونية للإنسانية فى العقائد والعلوم والفنون والأدب.

ولم يكن الفراعنة قديسين أبرارا، إلا انهم ولاشك كانوا أنبل وأفضل من أباطرة اليونان والرومان الذين كان بارنج يتغنى بانتمائه لحضارتها.

وقد وحد الملك مينا «مصر» وقاد تحتمس أهم حرب تحرير وطنية فى التاريخ القديم وكان إخناتون أول من دعا إلى التوحيد وقام بثورة روحية كبرى وضعته فى مصاف الرسل وكان شعار امنحتب الثالث لا جائع فى أيامى ولا ظمأن تحت حكمى ولم يكن الشعب خانعا مستسلما فقط وكانت الثورة الأولى فى عهد الأسرة الرابعة، ولم تكن الوحيدة وكتب الفلاح الفصيح أول منشور ضد الحاكم فى التاريخ.

ولم يعرف أن أحد الفراعنة كان يلقى برعاياه إلى السباع للتسلية ولم يحرق أى الملوك الفراعنة العاصمة، وبينما ظل يعزف على القيثارة كما فعل نيرون ولم يعين حصانه امبراطور بالنيابة كما فعل كاليجولا !!

ولكن لم يبد القنصل العام على مدى ربع قرن أى اهتمام بالحضارة الفرعونية بل كما قال أحد معاونيه أشك أنه زار المتحف المصرى على قيد خطوات من ذر الوكالة .

وقد هلك جيش قمبيز فى عواصف الصحراء ولم يعرف عنه شىء أو عن قائده ، ولهذا لم يحكم الفرس مصر كما ادعى.

وقد رحب المصريون بالفتح العربى ووجدوا فيه خلاصا من الحكم البيزنطى المسيحى وكان عقد الأمان الذى عقد بين عمرو بن العاص والبطريرك بنيامين دستور الحكم والتسامح والتعايش حتى الآن واعتنق علنا المصريون الإسلام ولكن ظلت مصر دولة متعددة الأديان وتعايش فيها الإسلام والمسيحية واليهودية بأفضل ما يكون التسامح فى ذلك العصر وطوال التاريخ .

ولم تشهد مصر أو العالم الإسلامى أي طائفية دموية مثلما عرفته أوروبا فى مذابح البروتستانت والكاثوليك أو إحراق العلماء والمفكرين أحياء إذا ما اختلفوا مع الكنيسة . ولم يعرف العرب أو المسلمون الحروب الدينية إلا ما فرضت عليهم أوروبا «بالمسيحية» باسم الصليب.

وقد شهدت أوروبا فى القرن التاسع عشر ازدهار الاستشراق العربى والإسلامى وبرز مستشرقون عظام فى العقائد والفلسفات والعلوم والآداب ولكن لم يكلف القنصل

نفسته ويطلع على أى منها . وعلى العكس رفض أن يتعلم العربية وكان لايشجع موظفيه ومعاونيه على تعلمها حتى لاينزلوا إلى الإنجليزية بحجة أن العربية لغة ميتة مثل اللاتينية أو السنسكريتية ولاتسع علوم وفنون العصر.

وظل حاقدا على الإسلام وأنه دين متعصب ومتزمت وقطع أيدى وأرجل وحريم وجوار وأنه سر تأخر المسلمين الأول والأخير.. وكان يكذب على نفسه قبل الآخرين فقد شهد شيخ الإسلام وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود يتصدرون الانتفاضة الوطنية الديمقراطية ورأى مكاتب المساجد والمعابد والكنائس تموج بالتآلف والتحالف ضد خطر الاحتلال وشهد جنابه أيضا على مدى ثلاث سنوات تألق السيد جمال الدين الأفغانى فى نشر ثورته الروحية الوطنية وقد استضافه الخديو إسماعيل تسع سنوات لكى يدعم ثورته التحديث والتنوير التى بدأها وليحميها من الرجعية الدينية وكانت كتابات الأفغانى وتعاليمه «تغزو القلوب والعقول» وكانت محاضراته أعيادا ومهرجانات ثقافية وفكرية يحرص الجميع الأجانب مثل الوطنيين والمسيحيين قبل المسلمين على حضورها.

وكان ينشر ويؤكد أنه لاتناقض قط بين الإسلام وأفضل ما في الحضارة الحديثة، بل إن جوهر الإسلام كفالة سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.. وكان محور تعاليم جمال الدين قيام جامعة إسلامية شعبية تضم الشعوب وليس الملوك والأمراء والسلاطين وتحررهم من الاستعمار والاستبداد والاستغلال وقد طاف جمال الدين الشرق والغرب واستضافه ويلفريد سكاوت يكتب في إنجلترا حيث لقى اهتماما كبيرا وحفاوة من الساسة ومن كبار المستشرقين.. وناقش معهم آراءه وحظى باحترام عميق، ولايمكن أن يكون ايفلين بارنج قد غاب عنه بل إنه لاشك كان على رأس حكومة الهند حينما عاد جمال الدين ولاتقل بطلانا تهمة الخنوع للاستعمار اليوناني وأن جنابه لم يعرف الظاهرة التاريخية الفريدة في تاريخ مصر خاصة، وكيف تستوعب الغزاة قبل أن تطردهم وأن البطالة كانوا أبرز مثل تاريخي فقد تمصروا تماما قلبا وقالبا، واعتنقوا الديانة المصرية، وبنوا نفس المعابد الفرعونية وانصهروا في بوتقة الحياة المصرية وقاوموا غزوات الرومان باسم المصريين جميعا وانتحرت كليوباترا ملكة مصر حتى لاتسقط أسيرة في أيدي الرومان!! وقد شاطرت بريطانيا

مـصــر فى ذلك التـاريخ إذ وقـعت تحت حكم الامــبـراطـورية الرومانية ولاتملك حق التشفى.

وقـد كـان المـاليك أمـراء مـصـريين وقـد اسـلمـوا وتعـربوا وتمصـروا وصـهرتهم شمس مصـر وتربتـها ونيلـهـا واسـتبسلوا فى حـمايتـهـا والدفـا ع حـتى المـوت عنهـا، وقـد أكـملوا رسـالة صـلاح الدين، وأجـهـزوا على آخـر الصـليـبـيين بأسـر «لويس التـاسـع» في المنصـورة.. وحـاربوا العثمـانيين دفـاعـا عن مصـر وسـقط آخـر السـلاطين الأبطـال فى المعـركة ضـد «سليم الأول» وتابع «طومان باى» المعركة فى مصـر ، ولم تهزمه إلا الخيانة.

وقـد خـاض المماليك أول معـركـة ضـد الاسـتـعـمـا ر الأوروبى وتحــالف السلطان الغــورى مع سلطـان بـلابار الهندى ضـــد البرتـغـاليين ، وكـادوا يهزمـون المشـروع الاسـتـعـمـارى الأوروبى الأول لولا خيانة القائد الهندى .

وخلفوا أثمن تراث معمارى إسلامى.

ولم يسـتقر الحـكم العـثمـانى فقط خـلال سنواته الطويلة فى مـصـر وكـانت مـصـر أول ولاية انـتـفـضـت وأعلنت اسـتـقـلالهـا بقيادة «على بك الكبير» سلطـان الدين وخـاقان البـحرى» والذى

كان أول رواد «المشروع العربى» ولم يهزمه سوى السلاح العثمانى التقليدى «الخيانة» وتكررت المحاولة المصرية فى زلزال هز أركان الامبراطورية والعالم عامة، حين وصل الجيش المصرى إلى أبواب القسطنطينية يحمل مشروع الخلافة العربية والدولة العربية بقيادة إبراهيم باشا نابليون الشرق.

ولم يختلف الأمر بالنسبة للاستعمار الفرنسى الذى «يعيرنا» به جناب القنصل.

وقد جاء نابليون إلى مصر بأول أحلامه العظمى أن يقيم امبراطورية الشرق وعرش الأمبراطورية العثمانية، ويخلع الامبراطورية البريطانية فى الهند ويعلن القرن الفرنسى، ولما بقى من التاريخ وتلفح بعباءة ووضع عمامة وأعلن تقربه إلى الإسلام والمسلمين ، وأنه ما جاء إلا لينشر آراء الثورة الفرنساوية القائلة بالحرية والتسوية.

ولم يخدع أحدا ومنذ نزل إلى بر الإسكندرية انتفضت المقاومة وكاد يفقد حياته برصاصة امرأة، فى إحدى حوارى المدينة.. وبعد ثورة القاهرة الأولى أعلن فشل مغامرة الشرق

وتسلل عائدا إلى فرنسا وفقد حليفه كليبر حياته انتقاما لهول ما ارتكبه ضد الشعب فى ثورة القاهرة الثانية وانسحبت القوات الفرنسية مهزومة يفتك بها الطاعون قبل نهاية السنة الثالثة وعادت فى جوف الليل إلى ميناء طولون الذى بدأت منه الحملة رافعة علم الثورة مثلث الألوان لكى ترفعه فوق عواصم الشرق من القاهرة حتى دلهى فى قلب الهند !!.

وحينما انسحبت القوات الفرنسية كان هناك جيش عثمانى ضخم فى القاهرة ينوى استعادة السلطة العثمانية كاملة وكان هناك جيشان بريطانيان ينويان المماطلة والبقاء بعدما انتهت بريطانيا إلى أن مصر «حتمية استراتيجية لحماية الامبراطورية فى الهند».

وفوجىء السلطان فى اسطنبول والامبراطور فى لندن، بما لم يتوقعه أحد أو يخطر بخيال أحد، إذا انتفض الشعب المصرى عن بكرة أبيه فى ثورة انتهت بجلاء كل القوات الأجنبية عثمانية وبريطانية وبالحدث الأكبر والأول من نوعه وهو انتخاب وال اختاره العلماء وصدق على بيعته الشعب وهو «محمد على» والذى تسلم سلطته «واليا علينا وبشروطنا».

وتباهى الفرنسيون حين وصل الخبر لقد اثمرت بذور الثورة الفرنسية التى زرعناها فى القاهرة.

وأصر اللورد على احتقاره لتاريخ مصر منذ البداية إلى النهاية وأكده وأصر عليه بعد ربع قرن من الحكم فى مصر وفى كتابه ودفاعه عن نفسه «مصر الحديثة».

وكانت القرية والاسطورة الأخرى أشد وزرا وبهتانا والتي حرص فخامته على تلقينها للشعب المصرى «الجاحد» خاصة والتى سجلها فى كتابه عن مصر ، وهى الفرق بين الامبراطورية الرومانية التى سخرت الشعوب والامبراطورية البريطانية التى وهبت نفسها لخدمة شعوبها.

عام ١٨٤٠ بعث امبراطور الصين رسالة استغاثة إلى جلالة الامبراطورية فيكتوريا يستعطفها. أن توقف تصدير الأفيون إلى الصين فإن الإدمان بدأ ينتشر ويفتك بالشعب فى جنوب الصين، وأن هونج وكانيون أصبحتا مراكز لتهريب الأفيون، ونشره إلى الداخل ، ولم تحفل جلالة الامبراطورة وأصدر حاكم هونج أمراً بمصادرة شحنات الأفيون ومعاقبة المهربين.

وكانت بريطانيا العظمى قد جعلت الأفيون محصولا رئيسيا للهند وغمرت به أسواق الصين غير المحدودة ولما صدر القرار سنة ١٩٤٠ قامت بريطانيا لمصالحة الشعب الصينى بحشد الاسطور للزحف إلى الصين ، ويدمر هونج كونج وكاينون ويفرض تجارة «الأفيون».

وحينما تقرر محاصرة انتشار الأفيون فى الجنوب. ثارت بريطانيا وقررت شن حرب الأفيون الثانية التى استمرت عامى ١٨٥٦ -١٨٥٨ وذلك للسماح بتصدير الأفيون فى كل الصين وكان لها ما أرادت وفتك الوباء بشعب الصين، وظل أكثر من مائة عام لعنه تلازمهم حتى تحررت الصين سنة ١٩٤٩ وقام عضو مجلس العموم يدعى السير جورج كامبل ساخرا:

«نحن ننشر السم القاتل فى الصين بدعوى أنه يحقق الرخاء فى الهند ، ولكن لا أرى أيا من الهنود أفاد من ذلك وكل الربح يعود إلى الخزانة البريطانية ولا يلوثها».

وفى نفس عام ١٨٤٠ حرب الأفيون الأولى، عاد نفس الاسطول بعد ضرب هونج كونج وكانيون واحتلالها إلى الاسكندرية ليهدد محمد على بضرورة الانسحاب وإلا ضربت

الإسكندرية واحتلت مصر .. واستطاع الجيش المصرى أن يحقق الانسحاب بنفس البراعة والشجاعة ووصف إبراهيم أنه بانتصاره وانسحابه فاق نابليون وأعظم قائد عسكرى فى القرن التاسع عشر.

وفى سنة ١٨٤٢ زحف جيش بريطانيا فى ١٥ ألف مقاتل إلى كابول واسقط الأمير الحاكم، وعين بدلا منه أميرا عميلا ولكن انتفضت القبائل وشعب أفغانستان فى حرب عصابات أبادت الجيش عن آخره ولم ينج منه سوى واحد فقط كان طبيبا بالحملة روى ما حدث .. ولكن لم يردع ذلك الامبراطورية عن التفانى فى خدمة الشعوب..

وفى سنة ١٨٥٧ انتفضت الهند وسرت شرارة الثورة كالنار فى الهشيم، ووقعت الامبراطورية العظمى على شفا السقوط واستولى الثوار على دلهى . وحوصرت القوات الرئيسية فى كاينور وكالناو وتحالف الهندوس والمسلمون وأشرفت الامبراطورية على السقوط والاستسلام.. لولا الخيانة .. التى كانت دائما أبرع سلاح يجيده البريطانيون وفشلت حرب التحرير الأولى كما يسميها الهنود وكان الانتقام مروعا لم يشهد له التاريخ قبلا.

شنق عشرة آلاف هندى على الأشجار التى تحف بطول طريق يربط بين شرق الهند وغربها، وابتدعت عقوبة حكم بها على ستة آلاف هندى وهى أن يربطوا إلى فوهة المدفع قبل اطلاقه، ودخل القائد العام على السلطان آخر سلاطين المغول، وبصحبة أركان حربه الضباط يحملون صينية كبرى مغطاة من الفضة وقال «ياصاحب الجلالة نهنئك بالانتصار، ونقدم لك هدية مناسبة، ونأسف أننا لم نفعل ذلك منذ وقت طويل» وكشف غطاء الصينية ليجد الأمبراطور رؤوس كل أولاده وبناته!!

لم تقتصر فظائع الامبرطورية على الشرقيين والملونيين ولكن امتدت إلى أقرب الناس جغرافيا من البيض المسيحيين . وانصب الجحيم على الإيرلنديين على الشاطىء المواجه وبلغت ضراوة القهر والاستغلال إن لم يجد الشعب الإيرلندى مخرجا إلا بالهجرة الجماعية رجالا ونساء وأطفالا إلى أبعد مكان فى الأرض الجديدة وكانت رحلة أهوال، غرق فيها مئات واعتبرت إحدى مآسى التاريخ الكبرى ومازالت آثارها قائمة حتى الآن ومازال الثأر محتدما حتى الآن، وتجثم المأساة الإيرلندية على ضمير البريطانيين أصحاب الضمائر وامتدت

فظائع الطبقة الحاكمة البريطانية إلى الشعب البريطانى نفسه وفى ذروة مجد الامبراطورية كانت مآسى الثورة الصناعية وأهوال العمل فى المصانع تهدر إنسانية الأغلبية حين يتكدس العمال من الأطفال والنساء والرجال أمام أفران الصلب وفى قاع مناجم الفحم فى ظل مجتمع طبقى صارم لا صلة بين طبقاته العليا وأغلبيته السلفى وسخر دزرائيلى من المجتمع البريطانى وأعضاء البرلمان الذين وقفوا ضد بعض الإصلاحيات الطبقية وقال فى بريطانيا شعبان مختلفان متعاونان لاصلة بينهما ويتربص كل منهما بالآخر .

وكان الخبير البريطانى كييف الذى جاء لبحث المالية المصرية على حق حينما نصح حكومته ألا تتباكي على الفلاح المصرى وتتخذه ذريعة لأنه ليس أسوأ حالا من العامل البريطانى أو الفلاح الإيرلندى .

ولم يكن ملوك وملكات بريطانيا والذى ينتهى لقبهم الامبراطورى «حامى العقيدة» نماذج للفضيل والعدالة .

كان هنرى الثامن سفاحا مزواجا متلافا استباح كل شيء ليحقق ثرواته وكانت جلالة الملكة والامبراطورة فيكتوريا أشهر من حكم الامبراطورية وبلغت ذروتها فى عصرها، واستمرت

بفصائلها البريطانية الصارمة وحينما مات زوجها أعلنت الحداد لما بقى من حياتها، واكتشف بعد وفاتها علاقتها الغرامية المشبوهة بخادمها الأمين، وقصائد الحب والغزل التى كانت تتبادلها معه.

وكان ابنها إدوار السابع يشبه الأم فى كثير فضلا عن أنه كان نصابا وقد ضاق كرومر ذرعا بمشاريعه فى مصر والتى أناب السير ارلست كامل فى استثمارها واستغلالها.

مؤامرة انجليزية للقضاء على الإسلام واللغة العربية

وقد تمت الموافقة على القرض فورا ولم يستقطع ثلثه أو ربعه فى السمسرة والعمولات بل وتمت الموافقة على أن تكون الفائدة ٤٪ وهو المطلب الذى استمات الوطنيون فى المطالبة به.

وتقرر أن يوزع القرض على أربعة أهداف .

الهدف الأول : تعويض الأوروبيين عن ممتلكاتهم التى دمرها البريطانيون علماً بأن الدمار انصب معظمه على الأخبار الوطنية وبدا كما لو كان ذلك متعمدا وأن القنابل تجنبت الأخبار الأوروبية .

الهدف الثانى : نفقات قوات الاحتلال وفق مبادىء المسيحية والحضارة الأوروبية .

الهدف الثالث : اخماد الفتنة التى تعاظمت فى السودان .

الهدف الرابع : اتفاق ما يتبقى على ترميم ما خربته

العمليات الحربية وبالطبع كان ضئيلا .

وبدا تحقيق الهدف الرئيسى وهو إعادة صياغة الاقتصاد المصرى وإلحاقه بفلك الاقتصاد الامبراطورى ومنذ أزمة القطن خلال الحرب الأهلية الأمريكية تطلعت صناعة النسيج فى لانكشاير إلى مزرعة القطن الفاخر فى مصر والتى استطاعت أن تسد الفراغ في مصر خلال الفترة العصيبة وقد حانت الفرصة بعد الاحتلال لتحويل مصر إلى مزرعة القطن الفاخر التابعة لمصانع لانكشاير وأن تقتصر الزراعة المصرية على هذا المحصول الواحد الذى يصدر بأكمله إلى بريطانيا .

وأعيد توزيع الأرض التى صودرت من أملاك الوطنيين الذين شاركوا فى الثورة أو من أملاك الدائرة الشعبية التى صودرت وكان الهدف خلق طبقة «اقطاعية» موالية تمام الولاء للعهد الجديد . ولم يحظ الفلاحون بأى نصيب من الأرض التى توزعت .

ولم يخطر ببال القنصل العام أن يعلن إلغاء السخرة التى طالما ندد بها . ونسب إليها كل مآسى الريف والفلاح ، وبدلا من الإلغاء اخترع جنابه نظاما يقضى بأن يدفع الفلاح أربعة

قروش إذا ما أراد أن يعفى منها .. وكان مبلغا باهظا !!

وكان القنصل من أشد الناس تنديدا بالامتيازات الأجنبية وأنها العقبة الرئيسية أمام أى إصلاح جوهرى ولكن لم يتضمن برنامج الانقاذ الذى بدأه أى مساس بها من قريب أو بعيد بل على العكس تماما فتحت الأبواب على كل مصاريعها ليتدفق سيل من الأوروبيين وقدمت لهم كل التسهيلات خاصة لاستصلاح الأراضى والمزيد من إنتاج القطن .

وتأمينا لجمع المحصول وإعداده حتى يصل إلى ميناء التصدير . فتحت أبواب الريف لسيل من أوروبيي الدرجة الثالثة كما كانوا يسمون وهم المالطون والقبارصة واليونانيون ثم مهاجرو سوريا ولبنان من المسيحيين الموالين (اللبنانيين) وعاث هؤلاء فسادا فى الريف وأقرضوا الفلاحين بأفحش الفوائد .

وكانت بنوكهم الريفية الصغيرة تذهب فى فوائدها إلى مائة فى المائة . وكثيرا ما ينتهى الأمر بنزع الملكية وتشريد أصحابها بلا مورد ولم يقتصر دور هؤلاء على الاستغلال والاستنزاف ولكن كما قال ماكنرى ادلاس «انتشرت الحانات فى أرجاء الريف وحتى أسوان فى أقصى الجنوب وأصبحت

بقالة وحانة وبنك اليونانى من علامات الريف المميزة .

وشن فخامته حربا شعواء على الصناعة وكانت مصر أول دولة فى الشرق استوعبت الثورة الصناعية الأوروبية وسبقت اليابان بخمسين عاما وكان التصنيع فى مقدمة البرنامج الوطنى فى عصر محمد على ثم اسماعيل ثم برنامج الثورة العرابية .

ولكن حوصرت الصناعة بعد الاحتلال ويقضى الاقتصاد الامبريالى أن تظل المستعمرات ومناطق النفوذ مجرد مزارع ومناجم وأسواق .

وبلغ تحريم الصناعة أقصاه حين قام بعض المستثمرين البريطانيين بإنشاء مصنعين للنسيج فى مصر . ولم يهدأ لجناب القنصل بال حتى أدى بهم إلى الإفلاس وبما فرض عليهم من ضرائب وكتب المراسل السويسرى جون ننبه :

كانت مصر تزرع القطن والقمح والدخان وقصب السكر بنجاح عظيم فى ظل النظام الوطنى وكل ما فعله القنصل العام بارنج أنه فرض زراعة القطن وقضى على المحاصيل الأخرى ، وأصبحت مصر تستورد غذاءها بعد أن كانت

تصدر القمح وأبطلت زراعة الدخان وكانت السجائر المصرية ذات شهرة عالمية .

وكتب يتودور رونشين :

كان إرغام مصر على زراعة محصول واحد يشبه تماما تربية أوز ستراسبورج وتسميته لمجرد صنع الفواجرا .

وبعد صياغة السلطة والاقتصاد كان لابد من صياغة العقل والوجدان وأكد ذلك تقرير دوفرين «أن سر تخلف المصريين الأول والأخير هو القرآن ولغة القرآن وأن الإسلام دين عنف ودم ورق وحريم وأن لغة القرآن لغة ميتة لا تشع علوم وحضارة العصر وأن تحرر العقل والوجدان المصرى يبدأ باستعمال لغة الكلام أى العامية لغة رسمية .

وتم اختيار الرجل المناسب لتحقيق هذا الهدف الحاسم وهو المستر دنلوب وهو قس اسكتلندى متعصب . تولى منصب مستشار المعارف وكان فاتحة الإصلاح الثقافى .

إغلاق معظم المدارس الابتدائية والثانوية وثلاث مدارس حرفية وأربع مدارس عليا والغيت مجانية التعليم ووصل عدد طلبة المدارس العليا الطب والهندسة والحرفية إلى عدد

لايتجاوز أصابع اليد واختصرت المواد التى تدرس بالعربية وتصاعدت المواد التى تدرس بالانجليزية وابتدع المستشار بدعة لم تسبق وهى اختيار مدرسين انجليز يتعلمون العربية لكى يدرسونها للتلاميذ بأسلوب عصرى !!

وكتب ناظر مدرسة الحقوق العليا الفرنسى لامبير والذى أرغم على الاستقالة ليحل محله انجليزى .

ليس هناك حدود لما وصلت إليه المدرسة المصرية من الانحطاط بعد أن كانت نموذجا فريدا ، ولم تعد غير أداة طيعة لتوريد خدم للاحتلال وتجتهد الادارة البريطانية وتستميت فى فرض لغتها وطريقة حياتها على المدرسة المصرية ومستشار التعليم البريطانى متعصب جاهل لا يعرف كلمة واحدة من العربية وكذلك القنصل العام ولكن كلاهما لايمل تسفيه هذه اللغة ذات التراث العريق . والتنديد بها . ويعامل المصريين فى مدارسهم معاملة المنبوذين وعليهم أن يتعلموا إلى الحد الذى يؤهلهم لتولى المناصب الصغيرة ولكى ينفذوا أوامر رؤسائهم الأجانب الذين يحتكرون المناصب العليا .

وإحكاما لصياغة العقل والوجدان المصرى تمت تصفية

الصحافة الوطنية التى ازدهرت منذ عصر إسماعيل وبلغت ذروتها خلال الثورة .

وبعد مصادرة الصحف الوطنية وإغلاقها وبعد نفى وتشريد أصحابها وكتابها أصدرت الوكالة البريطانية جريدتها الرسمية باسم «المقطم» بعد أن استحضرت طاقما لبنانيا من المتفانين فى الولاء ولتعميق الولاء أصدروا مجلة فكرية تنويرية باسم الغربية لكى تزيل غشاوة التعصب ضد الحضارة «المسيحية» .

وكانت فى رأى جنابه مهمة أثقل مما تصور أحد وكتب أحد مستشاريه المستر ستيوارت :

«نحن نحتاج إلى جيلين آخرين لكى نستطيع تحقيق الإصلاح وتوطيد أركانه وضمان ألا تحدث فتنة أو فوضى أخرى ولو فرض وغادرنا الآن فليس هناك شك فى أنه سوف ينتكس كل شيئ وترتد الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه .

وطمأنه القنصل وخفف بعض الشئ من انزعاجه وقال : « بدأ المصريون يقدرون المزايا العديدة التى تحققت لهم بفضل الاحتلال والتى لم يكونوا يحلمون بها هذا علما بأن الجحود

ونكران الجميل إحدى صفات المصريين الأساسية ورد تيودور روتشنين هازئا بحنانة :

«لو حصل إسماعيل على نصف أو ربع المزايا والتسهيلات التى يحظى بها بارنج لحقق أضعاف أضعاف ما يتباهى به الآن وإن كل ما يقوم به من إصلاحات مزعومة تتنافى تماما مع بديهيات الحضارة والمدنية التى يتشدق بها .

وقبل أى إصلاح كان أول ما حرص عليه بارنج وما حققه هو احتكار السلطة كاملة حتى يدرب المصريين كيف يحكمون أنفسهم بأنفسهم ويعلمهم بالحكمة والموعظة ما يصلح لهم من الديمقراطية البريطانية نعمة بريطانية التى تسبغها على كل الشعوب وكتب القنصل الأمريكى فارمان :

«قام الخديو الشاب بمحاولة يائسة بسيطة ليمارس بعض حقوق السيادة التى خولت له ولكن قمعت السلطات البريطانية المحاولة فى مهدها وذلك رغم الادعاء إنها جاءت لتوطد شرعيته وكان طبيعيا أن تمتد القاعدة إلى النظام وابتدعت بريطانيا صيغة المستشار الذى يلتزم الوزير بمشورته وبنصيحته وألا يتخلى عن منصبه وكان عليه أن يؤكد ذلك ويعلن فى تصريح عام لجريدة «التايمس» : « لقد انقذ

الانجليز حياتي وأعادوني إلى عرشي وانتشلوا بلادي من الفوضى والدمار وهم يضيفون كل يوم إنجازا جديدا ويبذلون أقصى الجهد في تنظيم إدارتها والنهوض بها .

وكان رئيس مجلس النظار محمد شريف باشا قد اقنع نفسه أنه رجل الأقدار والذى وجدت فيه بريطانيا رجلها الذى يعتمد عليه ، وقد أكد ذلك في أدق اللحظات ، ولولاه لما توطد الاحتلال وسوف تترك بريطانيا مقاليد الأمور ، وتلبي مطالبه حينما يرى حاجة إلى ذلك .

وجاءت الرياح بما لا تشتهى السفن وتفاقم الموقف في السودان ، وتقدمت الحكومة البريطانية بطلب أدهش المصريين جميعا وهو طلب إخلاء السودان من المصريين عامة سواء المواطنين أو القوات العسكرية .

وكانت وحدة مصر والسودان وأنه جزء لا يتجزأ من مصر عقيدة راسخة وكانت الثورة العرابية بعد انتفاضة المهدى قد قررت أن يعهد إليه بحكم السودان على أن يعترف بالسيادة المصرية ولكن رأت بريطانيا إخلاء السودان تماما من المصريين مدنيين وعسكريين ، وذلك حتى يتم الإعداد لاخماد السودان في ظل الأوضاع السائدة يعني كارثة محتومة لآلاف

العائلات المصرية والقوات المصرية وتقدم رئيس الوزراء بخطة بديلة تتضمن تدعيم القوات وإجراء إصلاحات كانت الثورة العرابية قد بدأتها بل كان شريف باشا نفسه قد وضعها خلال وزارته «الوطنية» الأولى قبل أن ينكر ماضيه وينزلق إلى الهاوية .

ورفضت بريطانيا اقتراحاته وأصرت على الجلاء وفي أسرع وقت ممكن ورفض رئيس مجلس النظار الطلب وأعلن أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر وأنه الزم لمصر من الاسكندرية ولم يلبث أن شاع وعم البلاء ، إذا تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا وجاء الرد حاسما من لندن وفي برقية مفصلة أصبحت أساس الحكم في مصر واشتهرت باسم وزير الخارجية البريطانية يومئذ جرانفيل وكان نصها : « لا أرى حاجة لأن أوضح أنه من الواجب مادام الاحتلال البريطاني قائما في مصر أن تتأكد حكومة جلال الملكة من ضرورة اتباع النصائح التي ترى تقديمها إلى الخديو في كل المسائل المهمة التي تتعلق بأمن مصر وحمايتها من الخطر وأنه يجب على النظار والمدراء المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة على عاتق الحكومة البريطانية

تضطرها إلى أن تصر على اتباع السياسة التى تقررها ويتحتم على أى وزير أو مدير لايتصرف وفقا لها أن يتخلى عن منصبه وتثق حكومة جلالة الملك أن هناك من الذين شغلوا منصب الوزارة من قبل أو منصب أقل درجة من هم على استعداد تام ليكونوا البديل وينفذوا الأوامر التى يصدرها لهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة» .

وأضاف القنصل العام إنذارا شفهيا إلى سمو الخديو وهو يسلمه المذكرة « إذا رفض المصريون تشكيل حكومة جديدة فإن لدى التفويض بأن أتولى إدارة البلاد بنفسى ومباشرة وخرج رئيس الوزراء الذى كان يلقب ذات يوم أبو الوطنية والدستور وكانت نهاية أليمة لرجل خان نفسه قبل مبادئه . وكان خروجا من السياسة عامة ، ولم يلبث طويلا حتى مات .. وخرج الشعب المصرى الطيب القلب فى آخر جنازة شعبية وقد سبق أن تسلم محمد شريف باشا رسالة من نفس اللورد جرانفيل وزير الخارجية لدى توليه أول وزارة وطنية فى ١٨٨٢ حملها إليه القنصل البريطانى ما لبث لدى توليه أول وزارة وطنية دستورية بعد انتزاع الدستور فى ميدان عابدين .

أود أن أذكركم أن سياسة حكومة بريطانيا نحو مصر لاتهدف إلا لشيء واحد هو أن تنجح فى تحقيق الحرية الشاملة التى تسعى إليها وتعمل جاهدة من أجلها وتوقن بريطانيا أن نجاح مصر بل ونجاح كل الأقطار إنما يتوقف على قدرتها على تحسين مستوى حياة الأهالى وهى تنمية ثروات البلاد وتدعيم روح الوطنية .

وقد انتهزت بريطانيا كل الفرص لاقناع الخديو وحكومته بسلوك السياسات المؤدية إلى ذلك ورفع الظلم والعسف وتحقيق الأمن والاستقرار .

وقد علمت أن الرأى السائد بين المصريين هو أن بريطانيا تنحاز إلى رياض باشا وأنه يتمتع بحظوة خاصة لديها وأن الخديو كان يفضله إرضاء لحكومة جلالة الملكة وحتى لا يثير غضبها ولذا لابد أن تقتنعوا تماما ولا يبقى لديكم أى شك فى أن حكومة جلالة الملكة لا تسعى بأى حال من الأحوال لأن تفرض على مصر حكومة تعمل بوحى منها لأنها تؤمن إيمانا قاطعا أن أى حكومة تستند إلى تأييد دولة أجنبية أو تخضع لضغط دولة خارج حدودها هى حكومة محكوم عليها ولن تحقق أى شىء سواء لمصلحتها أو مصلحة من يتصورون أنها

سوف تخدم مصالحهم . إن مثل هذه الحكومة لن تفعل سوى القضاء على ثقة الأمة فى حكامها وعلى إثارة الدسائس والمؤامرات ضدها ولا أظن أنى فى حاجة لأن أؤكد لكل المصريين حرصنا على أن تظل بلدهم متمتعة بما لها من استقلال فى إطار الفرمانات السلطانية وإن بريطانيا لا تفكر قط فى المساس به بل إنه يتنافى مع كل تاريخ بريطانيا ومنهجها وتقاليدها فى علاقاتها الدولية .

وكان المستر ماكنرى دالاس عضوا فى بعثة دوفرين ، ولم يعجبه التقرير والنظام الهزلى الذى فرض على مصر ، واستقال وعمل محررا فى جريدة التايمس وتخصص فى الشئون المصرية .. وكتب «أن الخرافات والأساطير التى تبتكر كل يوم وتنسج وتذاع حول إنجازات بارنج ومعجزاته ، والتى تجد متسعا فى الصحف لنشرها وتضخيم شأنها تثير الغثيان وحقيقة الأمر أن كل ما ينشر مبالغ فيه إلى الحد الذى يؤدى إلى عدم الاعتداد به أو تصديقه وكل الأدلة التى تقدم واهية لا يعززها أو يثبتها الواقع وكل إصلاحات بارنج المزعومة والحالية والقادمة لاهم لها ولا هدف سوى مصلحة الدائنين وحملة السندات والكوبونات ولا تعنيه مصالح مصر

والمصريين إلا عرضا» .

وقال فى رسالة أخرى نشرتها التايمس :

إن تقييمنا لما يتم فى مصر الآن مشوه مبتور وإذا أردنا تقييما موضوعيا صحيحا فلابد من أن نبدأ من الجذور وأن نجيب بشجاعة عن هذه الاسئلة .

١ - هل كان عرابى زعيما لحزب وطنى عميق الجذور فى قلوب أبناء وطنه ويطول البلاد وعرضها .. أم لا ؟

٢ - هل كانت الحركة التى قادها تعبيرا أصيلا عن أمانى المصريين وطموحاتهم أم لا ؟

٣ - هل كان برنامج عرابى للاصلاح عمليا وواقعيا ومعدا للتنفيذ على أيدى المصريين أم لا ؟

٤ - هل كان واجبنا «الشريف» والذى تمليه علينا ضمائرنا أن نساعد عرابى على تحقيق مشروعه وتنفيذه أم أن نقضى عليه وننفيه خارج بلاده وأن نحتلها بجيوشنا ؟

إن الكثيرين عندنا يرون أنه حتى لو كانت هذه الأسئلة واردة إلا أنها لم تعد ذات موضوع وكل ما نثيره هو جدل نظرى حول أحداث أصبحت فى طى التاريخ تماما مثل

أحداث روما وأثينا .. ويقولون أيضا: إن الحركة الوطنية المصرية سواء كانت حقيقة أم وهما انتهت وخرجت من التاريخ وأقول لكل هؤلاء: إن هذا هو الوهم الذى تعيشون به .. لأن الشعلة لا تزال باقية .. وإن كنتم لاترونها .

وفى رسالة أخرى كتب بما يشبه الانذار .

« إذا كنا نريد حقا حلولا صحيحة ودائمة . فليس أمامنا سوى طريق واحد ، هو أن نعيد عرابى ورفاقه من سيلان وأن نتعاون معهم وسوف يكونون على استعداد للتعاون معنا أيضا ونقدم لهم كل ما يحتاجونه لتنفيذ برنامجهم .. وليس هناك سواهم يمكن الاعتماد عليهم .

إن الخديو الذى تعتمد عليه مجرد صحراء من الرمال لتبنى عليه قصورا من الوهم ، ويجب ألا ندهش حين نرى ألا شىء ينمو أو ينبت وسواء شئنا أم أبينا فإنها سوف تسقط عاجلا أو آجلا بل وهناك من الشائعات ما تقول بأن الخديو نفسه ، يعتقد أن مصيره محتوم وأنه يفكر لهذا فى الانسحاب والاعتزال !!

وكتب أديب اسحاق . رغم ضراوة البطش ووطأته لم

يستطع الاحتلال أن يقضي على الجذوة تماما أو يقصم ارادة المقاومة ، وظلت متقدة ملتهبة تحت الرماد ، وفوقه أحيانا .

وفى اليوم السابق لدخول قوات الاحتلال العاصمة (تنادى أهالى الحسينية وباب الشعرية وخرجت جموع منهم يحملون الهراوات والعصى لملاقاة عساكر الانجليز وسارع المحافظ إبراهيم باشا فوزى لمنعهم وردهم وتجنب مذبحة كانت مؤكدة) وكتب أيضا :

بعد الهزيمة ساد البلاد من أدناها إلى اقصاها شعار تداول على السنة الناس جميعا يقول : «الولس كسر عرابى» أى الخيانة ولولاها لما انتصر الانجليز .

وكتب برودلى المحامى الانجليزى الذى دافع عن عرابى ظل الشعب على وفائه ولم يتغير .. وظلت الجماهير حتى يوم رحيل الزعماء إلى المنفى تتجمع طوال الليل والنهار رجالا ونساء وأطفالا حول سجن الاستئناف كما يفعلون حول الأضرحة ويبكون ويرددون دعاء الثورة يصرون عليه وهو الله ينصرك يا عرابى .

وبعد أيام قليلة من احتلال العاصمة نشرت جريدة الأهرام

التى تحـولت علـى الفور لخـدمـة الاحتـلال ، وبالغت فى الولاء «يلصق العرابيون ليلا على جدران المنازل والدكاكين اعلانات مـهينة وتتهم الحكومـة بملاقاة الأمر ومنه من يقدم على خدمة تلك الغايات وقبضت الحكومة على كثير منهم حتى تطهرت المدينة من قبائحهم» .

ولكن المدينة لم تتطهـر وعـادت الجـريدة لتكتب وتحـذر «قررت الحكومـة تشديد العقاب وتأديب من تقبض عليهم من ذوى التظاهرات القبـيـحـة والذين مـازالوا يتظاهرون ضـد الأوروبيين ، ويلصـقون الشتـائم على الجـدران ، رغم انقضـاء الأحداث وحلول الانجليز فى قلب البلاد .

وفى «العيد» الثانى للاحتـلال وقد تقرر أن يكون «عيدا» رسـميا يسـتـعرض فـيـه الخديو قـوات الاحـتلال فـى ميدان عـابدين مع القنصـل والقـادة وكـبـار الموظفين ، طلب القنصـل إلى الحكومـة و«بإلحـاح زيادة عـدد قـوات الاحـتلال لأن شـبح عزابى يظل مرة ثانية» واعتذرت الحكومة عن عدم استطاعتها ذلك لأن الموقف فى الهند يحتاج إلى كل الاحتياطى وتحايلت الحكومة بأن أمـرت فرقة كانت فى طريقها إلى الهند بأن تنزل إلى القـاهرة وتزرع شوارعـها بموسـيقـاها وأسلحـتـها حـتى

تردع المصريين وترهبهم !

وعقب الجنرال جوردون على ما حدث وكتب من جنوب افريقيا إلى ويلفريد سكاون بلنت في لندن :

مهما كان ما حدث أو سوف يحدث إلا أن عرابى خلد اسمه فى التاريخ وفى ضمير شعبه وسوف يظل إلى الأبد . وثق وتأكد أننا لن نستطيع مهما فعلنا أن نستعبد هذا البلد أو أن نجعل من أهله خدما أو عبيدا مطيعين .

«قاتل المصريون كما لم يقاتل شعب آخر فى القرن التاسع عشر من أجل هدفين رسخا فى ضمير الأمة وهما الاستقلال والدستور . واضافا لتراث الحرية والديمقراطية صفحة باهرة» .

قامت الحرب وليس في خزانة الحكومة درهم واحد لأن المراقب المالى الانجليزى كولفن أخذ الأموال من خزانة المالية وانزلها فى الأسطول الانجليزى قبل إعلان الحرب بأيام وكذلك الأموال الموجودة فى صندوق الدين فقد حملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية حيث أمنوا عليها .

ولهذا طلب المجلس العام تحصيل الأموال من الأهالى

بواقع عشرة قروش عن كل فدان ومن شاء أن يتبرع بشيء أعانة للجيش والمجاهدين فى سبيل الدفاع عن الوطن وحفظ الكرامة والشرف يقبل منه ذلك مع إعلان الشكر .

وقد جاءت الأمة على اختلاف طبقاتها ومذاهبها وسجلها بالمال والغلال والخيل والمال والابقار والجاموس والاغنام والفاكهة عن طيب خاطر ومن الاهالى من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشى« ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه وبالجملة فإن الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والعبرة ما لم يسبق له عهد فى القرون الماضية، إن جميع النفقات التى لزمت لمائة ألف جندى مصرى أثناء الحرب كانت من تبرعات الأمةالمصرية بغير تمييز بين العقائد ولم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الدولة.

أحمد عرابي من جزيرة سيلان إلى ويلفريد سكاون بلنت.

كانت الحركة وطنية بلاشك وكان عرابى يحظى بتأييد الأمة كلها، وكان من حق عرابى وحزبه أن يعلنوا أنهم قادة الإصلاح.

ولو عرف الشعب في بريطانيا الحقيقة لوقف فى صفهم.

كانت كل مصر معهم وأثبت عرابى ورجاله مقدرة وأمانة وصدقاً كاملاً كما أثبت حكمه وروحاً إنسانية سوف تشرف ذكراهم على مر التاريخ.

السير تشارلس برسفور

القائد الثانى للأسطول البريطانى ورئيس المحاكم العسكرية الميدانية بعد أن انتابته أزمة ضمير وراجع موقفه ودرس الحقائق والوثائق.

الحركة الوطنية المصرية حركة أصلية وهى التعبير الشامل عن آمال الشعب المصرى وقد تزعمها عرابى بإرداة شعبية جارفة واجماع خمسة ملايين فلاح وليقودهم ويحقق مطالبهم الشرعية.

برودلى - المحامى البريطانى

«هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان وبعد أن تكالب المسلمون والأقباط والإسرائيليون على نجدته بحماس وبكل ما أوتوا من حول وقوة. لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز.

وقد تبرع الأفراد والأعيان والعلماء حتي أفراد الحاشية الخديوية حتي النساء بالحبوب والنقود والعيرة اللازمة للجيش».

الشيخ محمد عبده

قبل أن يتبرأ من نفس الثورة

(٤)

استجابت الأمة لهذا الفلاح من أهلها الذى وقف موقف الشرف والكرامة وأمدته بسخاء بما طلب من مال وعتاد ورجال وقل أن نجد فى تاريخ الحروب كهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة وقامت على ما بذله الشعب المصرى من دمه وأمواله وقوته.

الإسلام سبب تأخر المصريين والأقباط غير قابلين للإصلاح

لم تخرج بريطانيا عن بكرة أبيها لتستقبل البطل العائد من الشرق والذى حقق حلما ذهبيا للامبراطورية بضم الجوهرة الثانية للتاج والذى انتشل شعبا مقهورا من بالوعة سقط فيها منذ آلاف السنين.

لم يرسل جلالة الملك الامبراطور اميرا او ياورا يرحب له ولم يبعث رئيس الوزراء بحرس شرف الميناء يؤدى التحية الواجبة ولم تزخر صفحات الجرائد وعناوينها الرئيسية بعودة أحد بناة الامبراطورية كيف بكى «الأهالى» حزنا لفراقه!.

وقرر طبقا لرواية مرضه أن يدخل إحدى المصحات ولكن لم يمكث طويلا وخرج ليقضى اجازة فى اسكتلندا ثم عاد صحيحا معافى ليبدأ حياة جديدة.

وبدا الإعلان عن عودته بسلسلة من المقالات فى إحدى

المجلات الأوربية عن الأدب اليونانى واللاتينى . حيث يفخرون دائما بضلوعه بحبهما ولكن هذه المرة تساءل البعض اليس غريبا انه لم يكتب شيئا عن الحضارة الفرعونية التى تشمل اوروبا منذ الحملة الفرنسية أو عن الحضارة العربية الإسلامية التى كشف الاستشراق الأوروبى البريطانى قبل الفرنسي والألماني عن كنوزها؟ ولم تضف مقالاته جديدا الى ما كان معروفا .. ولم تلق اهتماما .

وألقى خطاب تدشينه عضوا فى مجلس اللوردات .. ولم يضف جديدا، فقد أكد على الخطر الألمانى وأنه يتفاقم وتفاخر بالاتفاق الودى مع فرنسا وانه احتوى المد وأيد الحلف اسلافى مع روسيا وإن كان قد حذر من زحف التخلف على أوروبا!!.

ويدأ يبحث عن دور سياسى ولم يكن يخالجه شك فى أنه سوف يجد هذا الدور والحجة فى المسألة المصرية مستندا إلى خطاب ادوار جراى (من غيرك يمكن أن يحمل هذه التبعة الثقيلة التى ازحتها عن رأسى والتى حملتها عنى) .

والى ما قال إن رئيس الوزراء عرض عليه العمل ثلاثة أشهر فى مصر وتسعة أشهر فى بريطانيا على أن يبقى فى

القاهرة.. سوف يكون فى لندن إلى جوارهم ولن يفتقروا الى حلول .

وكانت خيبة الأمل والصدمة سريعة وشديدة الواقع، وبعد أول مقابلة مع ادوار جراى خرج مقررا الا يعود قط، وظل ثلاث سنوات كاملة يدخل إلى الوزارة فقد تحدث إليه طوال الوقت عن الخطر الألمانى ثم عرض عليه أن يكون سفيرا فى ألمانيا وبالطبع لم يكن هناك أدنى شك فى أن ألمانيا سوف ترفض سفيرا بهذا العداء المحموم هذا لو كان العرض جديا .

وحينما جاءت الأنباء وتواترت عن التغيير الخرافى الذى حدث في القاهرة وأن مركز السلطة انتقل الى قصر عابدين، وان الحدث الذى يتابعه والأجانب فى القاهرة هو رؤية المعتمد البريطانى الجديد يحمل أوراقه ويلقيانه كل صباح ويذهب إلى قصر عابدين حيث يقضى اليوم كله أحيانا، ويستدعى المستشارين البريطانيين ويشارك رئيس النظار أو النظار فى الاجتماعات.. وقرر أن يأخذ المبادرة ويذهب الى جراى يحذره من انحراف جورست، ومن الانزلاق الى حبائل الخديو .. ولكن أفهمه أولو العلم أن جورست لا يملك ان يضع سياسة، وأن ينفذ ما اتفق عليه فى لندن وراء ظهره .. وطبقا لتقاليد

السياسة والدبلوماسية البريطانية العتيدة.. وأن سياسة جديدة قد تورث باسم «الوفاق» لاجتذاب الخديو وفصله عن الوطنيين!!.

وتوالت الصدمات، وكانت التالية هى إعلان ميلاد الحزب الوطنى .

وولد الحزب وسط عيد ومهرجان سياسى شعبى لم تعرف مصر مثله منذ الثورة العرابية وتوافدت الجماهير من كل أرجاء القطر، ومن كل الطبقات والفئات آلاف من الباشوات والبكوات والأفندية والمشايخ والعمال والفلاحين ومن الأجانب أيضا، وحرصت الصحف الأوروبية ووكالات الأنباء على تغطية الحدث الأول من نوعه . ودعى عدد غير قليل منها .

وكان الحزب الوطنى قد أصدر جريدتين إحداهما بالفرنسية لتخاطب الرأى العام الفرنسى والأخرى بالإنجليزية لتخاطب الرأى العام البريطانى، وكانت كلتاهما على اتصال بالصحف ووكالات الأنباء الفرنسية والبريطانية وتزويدهم بالأنباء وتصحيح ما يدعى روجرف اعلان الحزب كل ما دعاه اللورد وأكده فى خطابه الأخير انهم قلة ضئيلة لا تمثل احدا

ولا تعنى شيئا، وأنهم يعملون لحساب السلطان، وللجامعة الإسلامية .

وألقى مصطفى كامل خطاب تدشين الحزب، وفند كل ادعاءات وأحقاد اللورد وأن الحزب وطنى مصرى للمصريين لكل المصريين وأن هدفيه الأساسيين هما الجلاء والدستور، وكل ما يقال عدا ذلك محض افتراء.

واسترعى الحزب الوطنى المصرى كل اهتمام الحزب الجديد الذى قام فى بريطانيا قبل عام، وهو حزب العمال البريطانى وتوثقت الصلات بين الحزبين وأصبح وكيل الحزب المستر كير هاردى صديقا حميما لمصطفى كامل ومحمد فريد.

وكان حزب العمال قد كسر الاحتكار الثنائى للسياسات البريطانية بين المحافظين والأحرار، وخرج برؤية جديدة ثورية هى بريطانيا الاشتراكية وان الحل تغيير النظام جوهريا، وان الامبراطورية صنيعة تملكها الطبقات العليا، يعمل لها ويموت فى سبيلها العمال فى أحراش العالم وصحاريه.

وقام حزب العمال بدور حاسم فى ادارة دنشواى وهب

أقطاب الحزب ومفكروه فى حملة ضاربة على اللورد والاحتلال وكان البيان الأول لاذعا وقعه برنارد شو .. وكتب برناردشو ملحمة كاملة وحاول اللورد أن يجدد عضويتهُ فى حرب الأحرار ولكن لم يرحب به الحزب، وكان قد تخلى عنه بل وتولى أحد أقطاب الحزب المستر روبرتسون التحقيق فى أحداث دنشواى وكان متعاطفا مع مصر وقام بزيارتها مرات عديدة.. وتعرف إلى الكثيرين من رجالها، واراد أن يلتحق بحزب المحافظين ولكن لم يرحب الحزب برجل لم يلتحق حزبه الأول وقام بتجربة بائسة فقد قام مع المتشددين من اقصى اليمين خارج الإطار الحزبى، وكونوا حزبا جديدا من أربعة وأربعين عضوا، بتكوين نواة حزب جديد لأقصى اليمين ينقذ بريطانيا من التدهور على يد الأحزاب الثلاثة القائمة.

وانصب اللورد فى حملة محمومة ضد حزب العمال وضد الاشتراكية التى تعنى نهاية الامبراطورية .

ولم تجد الحكومة ما تساعده به ضد الفشل المتلاحق سوى أن تعلن عن مكافأته بخمسين الف جنيه على ما قام به من الخدمات «الجليلة» للامبراطورية وهب على الفور نواب العمال. ينددون بهذا الإسراف الذى لا يستحقه وأن هناك

آلافــا من المشـردين فى لندن ينامــون فى الحــدائق وتحت الكبارى وهـم أولى بذلك وجـهت صـحـيفـة «السـتاندرا» حـملة ضارية طالبت فيها بمحاكمـته على جريمة شنعاء هى الاهمال عن عـمـد فى اتخــاذ كل الوســائل الممكنه لإنقـاذ الجنرال جـوردون «أشـجـع وأنبل جنود الامـبـراطورية» والذى انتـدب لإخلاء السودان من القوات والمدنيين المصريين، وكان مذبحة كبرى راح ضـحيتـها الآلاف ومنهم جوردون وكان مـشـهورا ومـعـروفـا أن الجنرال عـقب اللورد ويرى أنه آخر من يصلح للمنصب».

وقرر أن يرد على الجميع بأن يعكف على كتابة كتاب يرد فيـه على كل مـا أثيـر ضـده وصدره بكلمة نابليون الشـهيرة مــصــر هـى أهـم بلد فى العــالم، وقــررت الجـريدة ورئيس تحريرها لطفى السيد ان تترجم الكتب وأن تدعو المصريين للرد عليه .

وقدمه قائلاً :

ان كتـاب مصـر سـهم يسدده اللورد إلى قلوب المصـريين ويريد أن يسفـه أحـلامــهم ويبـدد آمـالهم ويطعن على دينـهم ونظمهم وأخلاقهم وهو يكشف النقاب عن وجه الاحتلال ويحلل

اسرار السياسة البريطانية وكيف تستغل اى وسيلة لتوطيد اقدام الاحتلال .

وقال الشيخ على يوسف فى المؤيد

أقام ربع قرن لم يعرف سوى قلة حوله زيفوا له جهل المصريين فصدقهم وجازت عليه اقوالهم وقضى ربع قرن لم يسهل تحصيل العلم على ناشئة الأمة ليعد منهم رجالا يتولون الوظائف بدلا من الإنجليز وختم حياته بتقريره الأسود والذى ملأه تناقضا وتحاملا على الدين..

وكتب ابراهيم بك رمزى فى بحث طويل .

قد نقبل من فخامة اللورد أن يفيض لنا الشرح فى المواضيع المالية والإدارية ولكن لا نقبل ان يكتب لنا عن الأديان وأن يرمى الدين الإسلامى بما هو برىء منه وأنه غير قابل للإصلاح وأنه السبب الوحيد فى تأخر المصريين ثم يلتفت ليقول إن الدين على العكس قابل للإصلاح والمصلحين ثم يطعن على المذهب الارثوذوكسى مذهب اخواننا الاقباط بأنه اقل قابلية للإصلاح من غيره ثم يبشر فيدعى ان المذهب البروتستانتى هو المذهب الوحيد القابل للإصلاح بكل معانيه

وانه بالاختصار خير المذاهب فى خير الأديان وكأنه آلَ على نفسه ان يذم مصر والمصريين فى كل شىء فى مصر حتى الديانة المسيحية نفسها متى بقية مصرية وكانت مغايرة للمذهب الشائع فى القاهرة ومن أين يعرف جناب اللورد ما يبنى عليه الإسلام من العقائد وأن يقابلها بغيرها بما فى الأديان الأخرى وقد اقام بيننا ثلاثين عاما متحجبا تحجب ملوك الشرق وامرائه ولم يخالط الا الفريق الذى تقرب منه لأشد الضرورات او لمناسبة الوظائف ولم يفقه اللغة العربية ولم يذق لها طعما».

وكتب لطفى السيد مرة أخرى .

يؤكد اللورد ويكرر فى كتابه أن جلاء الإنجليز الآن سوف يؤدى إلى انقلاب تتبعه ثورة فى البلاد تطيح بكل ما تحقق مادام الحال كما هى عليه الآن فى مصر ومازالت اثار الاستبداد القديم قائمة ولابد من زمن طويل حتى تتهيأ هذه الظروف ولكن ابسط العقول تدرك أن العلة فى تأخرنا إنما جاءت من الاستبداد البريطانى القائم وليس البائد وهكذا يبرر اللورد بقاء الاحتلال بهذه المغالطة التى لا تجوز على أحد .

وكتب القانونى الكبير اسماعيل بك زهدى :

انتهيت بعد قراءة كتاب فخامة اللورد ان تطور الفرد حتى يصير انسانا اقرب الى الواقع من تطور نظمنا التشريعية حتى نصل إلى الدستور وقد فتشت فى بطون كثير من القوانين والنظم لأجد كائنا أو مخلوقا يشبه الجمعية العمومية التى تنعقد فى بلادنا مرة كل عامين باسم الدستورية فلم أجد وكنت من سنين بمجلس شورى القوانين الذى يعين أعضائه بمعرفة الحكومة ليكونوا اعضاء دائمين فلم أجد وقلت فى نفسى مصر بلد العجائب والأصل عن النيابة عن الأمة أن يكون للرجل الكفؤ صاحب المبدأ والمصلحة الحقيقية لأن وظيفة النواب علم وكفاءة وتجربة واستعداد وهى مرتبة من المراتب العليا لا تقل أهمية وشرفا عن مسند القضاء والإمارة والأمانة فى الإسلام ولكن نظامنا الذى يشيد به اللورد فى كتابه هو أبعد ما يكون عن العدالة والمصلحة العامة لأن القانون لا يشترط فى النيابة اى كفاءة ولأنه يقصر حق النيابة العمومية عن الأمة فى قمة الأغنياء .

وان ما جاء فى كتاب مصر الحديثة يدل دلالة صريحة على انه كان بعيدا كل البعد عن الوقوف على حقيقة المصريين

ولا يحفظ تاريخهم ومن الظلم الخالص أن يقوم بوضع القوانين ويجد من ينوب عن أهلها فى وضع قوانينها .

ويختتم اللورد كتابه بأنه يكره تحديد مدة للاحتلال او ضم مصر للامبراطورية وانه فى اليوم الذى نثق فيه كل الوثوق انها اذا خرجت من مصر سوف تترك وراءها حكومة قوية ثابتة تقدر على دفع كل خطر من الفوضى والإفلاس وتمنع القطر المصرى من أن يعود سبب للخلاف والشقاق بين دول أوروبا .. يقول: إنه اذا تحقق ذلك اليوم فإن انجلترا سوف تسحب قواتها من القطر المصرى ولكنه يسارع ليؤكد ان ذلك اليوم مازال أبعد من أن يكون .

وكتب أحمد لطفى السيد مرة أخرى أن الدين الإسلامى يأمر بالتعاون والتعاضد والائتلاف بين أفراد الأمة كما يأمر بالعدل والإحسان ويوصى خيرا بالمتحالفين من أهل الأديان الأخرى على الصور المستفيضة فى الفقه وليس من مبادئه مطلقا التعصب الشائن ويقصدون به التعصب الدينى معنى عدائيا هو التحرش بغير المسلمين وحضارتهم والتربص بهم فلا يبقون عليهم وهذا المعنى لا اصل له فى نفوس المسلمين الذين كل جنايتهم أمام أوروبا انهم اخذوا يفكرون فى أن

ترقى عقولهم بالتعليم ولشعوبهم بالحرية وان يدفعوا بجميع الطرق السلمية كل مبدأ أو قوة تعمل على الحيلولة بينهم وبين كل ما يشتهون من الرقي العقلى وليسابقوا غيرهم فى الحياة المدنية وأنهم يتعلمون الآن من الأوروبيين فكيف يمكن أن يضمروا لهم ما يتجنى به هؤلاء عليهم ليبعدوهم عن كل مدنية وليسهلوا لأنفسهم دوام الاستفادة منه دون أن يصدوهم وأظن أن وجه المسألة على هذه الصورة مقلوب الوضع وأن المسلمين هم أولى بأن يتهموا الأوروبيين بالتعصب .

ولم يقدر لفخامة اللورد أن يهنأ بصدور كتابه طولا ، ولم يلبث أن ظهر كتاب أجهز عليه وبدد كل المزاعم والتلفيق التى زخر بها الكتاب الجديد اسمه «التاريخ السرى للاحتلال البريطاني لمصر» وكان المؤلف ويلويد سكاون وقد جاء فى زيارة سياحية لمصر مع زوجته حفيدة اللورد بيرلن شاعر الحب والحرية البريطانى وكانت مصر قد أصبحت مشتى الارستقراطية البريطانية والسياحة بها أولى مقومات الانتماء؟.

وبهرته مصر الفرعونية ومصر العربية الإسلامية وتعاطف تماما مع الشعب وطريقة حياته وقرر أن يتعلم العربية

وليتعمق فى معرفته وبحث عن طالب ازهرى يعلمه اللغة العربية وساقت إليه الصدف الشيخ خليل من شباب الازهر وتلاميذ الأفغانى ومحمد عبده.. وحدثه عن الحركة الوطنية العرابية - وعرفه إلى بعض رجالها حتى انتهى إلى الشيخ محمد عبده، وتعاطف من الثورة ثم اعتنقها ووجد فيها قضية حياته - وشارك فيها كأحد ابرز قادتهاوشارك فى وضع البرنامج ثم فى المواجهة مع بريطانيا وفى المراسلة من القاهرة ولندن حتى اصبح وزير خارجية عرابى كما لقبه البريطانيون وفجع بلنت فجيعة كبرى فى النهاية المأساوية التى انتهت إليها الثورة وحمل بريطانيا كل التبعة.

سياسة وضيعة ودبلوماسية خسيسة وحرب قذرة كما وصف مواقفها .

ونذر حياته للقصاص العادل لمصر ثم لكل شعوب الامبراطورية ضحاياها واتخذ مصر وطنا ثانيا واشترى بيتا وصنعه وأقام طوال فصل الشتاء .

ونصب بلنت نفسه رقيبا عتيدا على كرومر . وكان ذلك يمقته ويخشاه لمكانته فى بريطانيا ولا يملك سوى استقباله ومهادنته وتصدر الحملة التى لم تهدأ حتى افرج عن

العرابيين ولم ينقطع عن مراسلته بل وزيارته وكان اول المهتمين بعودته وتبنى مصطفى كامل وقال إنه حقق نبوءته فى أن مصر سوف تنهض ثانية وتسترد نفهسا وقال فى كتابه :

«ربما انتظرت طويلا ولكننى كنت واثقا أن مصر سوف تقف على قدميها مرة ثانية وسوف تقتص لنفسها وسوف تسترد نفسها وارادتها .. انتظرت لكى اقدم للجيل الجديد قصة شاهد عدل .. عاصر الأحداث وشارك فيها .. وذلك لكى يستأنفوا الطريق ويكملوا الرسالة : «وسارعت الجريدة بترجمة الكتاب ونشره .. وقدمه رئيس التحرير احمد لطفى السيد .

نشر المستر بلنت كتابا ممتعا فى ستمائة صفحة بالقطع الكبير وسماه التاريخ السرى للاحتلال البريطانى فى القطر المصرى وقد تخاطفته الأيدى فى بلاد الانجليزى بشغف شديد هذا الكتاب قرأه أصدقاء المستر بلنت حبا لشخصه وتقديرا لجهده حق قدره كما تناوله اعداؤه ليأخذوا عليه خطأ يلمسونه فيه واهتم به رجال السياسة الخارجية لاشتغالهم منذ حين بالسياسة المصرية كما أن رجال الحكومة تهافتوا عليه لما هتكه المؤلف من أسرار السياسة البريطانية وغنى عن

البيـان ان الكتـاب اهـم مـا كـتب عن مـصـر فى قرن كـامل لتضمنه تاريخ الثورة الفكرية التى قام بها المتنورون من ابناء الجيل الغـابر ونشروا مبادئها وساروا بواسطتـها فى طريق الحرية الحقيقية وأوشكوا ان يتخلصوا من استبداد السلطة الفردية .

ويظهر أن جمهور القراء من الفرنسيين ليسوا بأقل شوقا إلى قراءة الكتـاب ودراسته من إخوانهم الانجليز لأن احدى المطابع الفرنسية الكبرى اتفقت مع المستر بلنت على اصداره باللسان الفرنساوى فى الربيع المقبل ولا ندرى بأى لغة أخرى ينقل هذا الكتـاب الذى لم ينسج على منواله احـد وأنه من المرجح أن يقرأه الإنجليز والفرنسيون والألمان».

واسـتطرد ومما يدهش أن كتـاب الانجليـز انفسـهم قـد صدمـوا وضـجـوا بما ورد فى هذا الكتـاب عن بعض الأحياء مـثل السـيـر ادوارد مـا ليب قنصل انجلتـرا فى مـصـر إبان الثورة العرابية والسير اوكلاند كويفين مراقب المالية المصرية فى ذلك الزمن والسـيـر ادوارد هاملتـون الذى كـان كـاتما لأسرار المستر جلادستون رئيس الوزارة الانجليزية وقد اشيع فى الأسـبـوع الماضـى أن كتـاب بلنت ازعج السـير اوكـلاند

كولفن وشدد مرضه والم نفسه وبات عليلا محسورا وقال المؤلف فى مقدمة كتابه أنه أرجأ نشر الكتاب طوال السنوات الماضية حتى ظهور نهضة وطنية فى وادى النيل وليسترشد رجال الساسة الإنجليز فى العهد الحاضر مما حدث على يد أسلافهم .

ومضى يقول ومع أن المؤلف نقد عرابى باشا نقدا شديدا إلا أنه فند كل دعاوى بريطانيا واكد بما لا يقبل اى شك ان عرابى كان بطلا شعبيا وطنيا التفت حوله الامة وأنه قاد ثورة وطنية ديمقراطية كانت كفيلة بأن يمتد آثرها من الهند إلى المغرب وانه يبدأ منها تحرير الشرق .

وقالت الجريدة «من هذا الكتاب يعلم الجيل الجديد كيف سقطت بلادهم فى يد الاحتلال ظلما وبغيا وغدرا .. وقد سخرت الخارجية البريطانية كل ما لديها من حيل المدنية وأعنى بها الكذب والغدر والغش فلم تفلح ولم تغن شيئا تلقاء سيطرة الحزب الوطنى «العرابى» وقد استجمعت بريطانيا جلالها وحشدت أسطولها وسطوتها ثم امرت عرابى بالجلاء ولكنه ابى ولم يخش جلالها ولا عبأ بأبهتها بل عاد ذلك الفعل على بريطانيا بأشد الضرر اذ جعل عرابى ذا مكانة فى

نفوس الشرقيين قاطبة وكتبت صحيفة الهيرالد البريطانية .

«قارن كثيرون بين ما كتبه اللورد كرومر وبين ما كتبه المستر بلنت وأصبح واضحا كيف أن اللورد يتجاهل الحقائق ولا يكتب الا ما يتفق مع آرائه واذا استثنينا من لا معركة لهم بمصر او من لا صبر لهم والذين يرفضون الاعتراف بالحقائق فان كتاب اللورد احدث تأثيرا عكسيا مما قصد اليه وبدلا من ان القارئ النزيه يبارك النظام البريطاني فى مصر فإنه يحمل القرار الأمناء الذين يفكرون ويغضبون بحثا عن الحقيقة إلى كشف حقيقة تلك السياسات ورفضها تماما».

وكتب السياندراد

«أخذت اقارن بين ما كتبه بلنت وما كتبه كرومر ووجدت الفي صفحة ليست فيها ذرة من الحقيقة وتفيض ازدراء وحقدا على المصريين وأهدافهم الوطنية المشروعة وتعبر عن كلام ردىء بلا حدود ولقد لطخ كرومر سمعة أعظم جندى بريطانى قام بواجبه واشتهد فى سبيله وفى بطولة خارقة كل ذلك ليسدل الستار على النهاية السوداء لحكمه وكل سياساته.

وقد عاش بلنت وأطال الله عمره ليشهد ذرة تحقيق أحلامه

بقيام ثورة ١٩١٩ وكان يعرف زعيم الثورة منذ كان الشيخ سعد زغلول تلميذ جمال الدين ومحمد عبده وأحد زعماء سياسات ثورة عرابي. وكان هو الذى رشحه وزيرا للمعارف بعد دنشواى وسعى وألح حتى فرضه على كرومر . وطالب بالمزيد من الوزراء الفلاحين تعويضا واقتصاصا لجروح دنشواى.

وقد ردت اليه ثورة ١٩١٩ شبابه وقال: إنه يستطيع ان يموت مطمئنا .. وكان على صلة دائما بسعد زغلول خلال اقامته في فرنسا خلال مؤتمر فرساى.. واستبسل في مساعدة ممثلي الثورة في لندن ولدى الأحزاب والحكومة والصحف وتمنى لو يستطيع زيارة القاهرة مرة أخرى قبل أن يلقى الله.

أصحاب الجلاليب الزرقاء

كانت الأسطورة البريطانية التى تقوم عليها الامبراطورية والتى يتعلمها الصغار والكبار والعامة والخاصة هى أن الامبراطورية مؤسسة إنسانية حضارية بل ركيزة المدنية والعدالة - نسق جديد غير كل الامبراطوريات والحضارات السابقة.

وقد بدأت بخروج «جون بول» البحار طيب القلب من شواطىء جزيرته ليكتشف العالم ويتعرف عليها وفى كل خطوة من رحلته كان يصادف بلاداً وأمما وشعوباً عديدة متخلفة الألوان والجلود بل ومتوحشة فى كثير من الأحيان ولم يكن يطاوعه ضميره أن يزورهم عابراً ويمضى بل قرر أن يقيم فيهم وأن يحمل إليهم رسالة نذر حياته لنشرها وهى (رسالة الرجل الأبيض) وأن يبدأ معهم من الصفر ويعلمهم كيف يحكمون أنفسهم وينظمون حياتهم ويتعرفون إلى العالم المتمدن حولهم ويظل معهم لايغادرهم حتى يطمئن ولايداخله

شك فى أنه رد إليهم إنسانيتهم ويودعونه ، وتأكيداً لذلك وقف المستر جلاستون بعد الاحتلال بأيام ليرد على سؤال لعضو فى مجلس العموم ليقول :

لقد سألنى العضو المحترم هل فى نيتنا احتلال مصر إحتلالاً مؤقتاً أم إحتلال غير محدد وأنا أذهب فى الاجابة إلى ابعد مدى وأؤكد لك اننا لن نقدم أبداً على الاحتلال الدائم لأننا بذلك نتنكر لمبادئنا ونتناقض مع كل ماتقوم عليه سياساتنا وكل ما التزمنا به نحو أوروبا .

فى أول خطبة عرش القتها جلالة الملكة الامبراطورة أعلنت فيما يتعلق بمصر فاننى سوف أمارس نفوذى للمحافظة على حقوقها المقررة فى الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية وذلك بدافع من حب الخير لشعب هذه البلاد وحكومته وللارتقاء بنظم الحكم هناك بحكمة وحزم».

«إن الشك الذى يساور الرأى العام الأوروبى حول احتلالنا لمصر يعود إلى أن هناك البعض ممن يفترون ويدعوا أننا قمنا باحتلال صريح مؤيد واننا ننوى أن نضم مصر وندمجها فى الامبراطورية ولكن ذلك أمر نرفضه تماماً .

وليس لدينا أى نية فى ذلك بل إننا نقاومه تماماً وهو يعنى انحرافنا عن واجبنا نحو مصر وخروجا على كل المواثيق والمعاهدات المصرية الحاسمة التى قطعناها على أنفسنا أمام العالم والتى اكتسبنا بها ثقته واحترامه، إن الاحتلال لن يتجاوز المدة الضرورية لتوطين الشرعية ولن يؤدى أبداً إلى الضم وسوف نحرص أشد الحرص على أن لايكسب أى صفة دوام الاستمرار».

وقال اللورد دوفرين الذى وضع أسس النظام الجديد فى مصر والذى انتهى بها إلى ولاية هندية «ليس لدينا ادنى رغبة فى الاحتفاظ بالسلطة التى آلت الينا فى مصر وقد قررنا أن تكون علاقتنا بمصر علاقة طيبة تماماً وذلك بأن نخجل من أنفسنا أصدقاء مخلصين ومستشارين صادقين لهم وأن لانقوم بأى حال من الأحوال على أن نعرض عليهم شيئاً لايرضونه.

وتحقيقاً لمبادىء البحار الطيب «جون بول» أعلن السير ايفلين بارنج فى أول تصريح له بعد اختياره للمنصب الأول بعد الاحتلال.

سوف تكون مهمتى إرشاد الحكومة البريطانية إلى

أفضل النظم لادارة بلد احتلته رغم إرادتها وفى لحظة غيبوبة سياسية ولا تعرف الكثير عنه وسوف اكرس كل جهدى لانتشال شعبها المقهور الذليل الذى سقط فى أعماق هوة سحيقة وأن ارفعه إلى مصاف البشر لأول مرة فى تاريخه.

وفى تصريح آخر أضاف إن مصر تعنى بالنسبة لى الفلاحين أولاً وأخيراً وهم الغالبية العظمى التعسة والتي أحمل لها في نفسى عطفاً شديداً وأنا أعطف على الفلاحين عامة وقد اكتسبت هذا العطف خلال عملى فى الهند وتجربتى الشخصية الأليمة هناك وأنا أشهد المجاعات والأوبئة تحصد الملايين منهم في دورات منتظمة وتضاعف العطف حين عملت في مصر وعشت واقعها واحطت بمشاكلها إحاطة كاملة، وقال أيضاً لن نحجر على حرياتهم أو يثير سخطهم أو حقدهم علينا وان كل ما نريده هو أن تهيىء لمصر كل أسباب الترقى والتقدم وأن نغرس في أرضها بذور الحرية ولكي نقدم حكومة مستنيره جاده وأن يجلس على عرشها حاكم لبعث الثقة وحكومة تكفل الحرية والعدالة ويتولاها رجال متميزون بالكفاءة والنزاهة وهو كل ما نرى أنه واجبنا فى مصر.

ولم يكن اللورد ليعرف أو يعترف أن الفلاح المصرى مهما كان بؤسه وشقاؤه لم يكن منبوذاً هندياً أو كما مهملاً ولم يقرأ فيما بعد شكاوى الفلاح الفصيح» فى مواجهة الفرعون وثورات الفلاحين وانتفاضتهم خلال العصر الفرعوني.

ولم يكن ليعترف أن أول هزيمة لقيها نابليون كانت على يد الفلاحين المصريين والذين اطاحوا بأكبر أحلامه وقد امتدت المقاومة الشعبية منذ اليوم الأول حتى رحيل الحملة يفتك بها الطاعون بعد مقاومة تاريخية بطول مصر وعرضها من رشيد والاسكندرية حتى أسوان والنوبة.

وكان فخامة اللورد الدائم الفخر بثقافته وإجادته اللغتين اليونانية واللاتينية، وتراثهما ولكنه لم يحفل بدراسة أعرق الحضارات وهى الفرعونية وكان لايدرك عنها شيئا ويزورها عابرا خلال قضاء بعض الوقت فى الشتاء فى الأقصر وأسوان. أهم تأتى الارستقراطية البريطانية خلال ذلك العصر وكان شديد الازدراء والاحتقار للتراث العربى الإسلامى وكان يراه السبب الأول لتخلف المصريين ولذلك استمات فى فرض اللغة الانجليزية على غرار الهند.

وفى فصل المصريين عن تاريخهم العربى بفرض اللغة العامية لأن اللغة العربية انقرضت مثل السنسكريته ويجمع المؤرخون العسكريون أن الحرب الشعبية التى أصبحت سلاح الشعوب المستعمرة والمقهورة بدأت فى مصر بالمقاومة ضد نابليون والاطاحة بالمشروع الذى كان يريد إعلان القرن الفرنسى» ، وذبح بريطانيا » .

وكتب كاتب بريطانى ساخر بحثا عن شعب آخر «كنجليك» يبدو أن أقدام جون بول غرزت فى طمى النيل ، وعلى أية حال ولم يكن الفلاح المصرى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أو أى عصر من العصور أسوأ أو أحسن حالاً من الفلاح فى أى بلد فى الشرق أو الغرب لم يكن الفلاح المصرى فى ظل الاقطاع المملوكى أو العثمانى أسوأ من الفلاح الروسى فى ظل القيصرية والذى اشتهر بأنه اتعس فلاح فى «التاريخ» ولم يكن أسوأ أو أحسن حالاً من الفلاح الفرنسى فى ظل حكم البوربون، وقامت الثورة الفرنسية باسمه ولكن ظل مع ذلك فى القاع ولزمن طويل بعد إعلان حقوق الانسان والمواطن!

ولم يكن الفلاح المصرى أسوأ أو أحسن من الفلاح الصينى فى ظل امبراطورية السماء وقد فرضت عليه بريطانيا ادمان الأفيون ، كان السلاح وفى حرب أولى وحرب ثانيا حتى أصبح وباء فتاكاً اجتاح الصين.

واشتهرت الهند «جوهرة التاج» البريطانى» بأنها أرض المجاعات والأوبئة وجاء فى كتاب أمريكى بقلم وليام بران فى القرن الماضى.

الفقر فى الهند مزرى ومخيف وتعيش الملايين هناك على حافة الموت جوعاً ومع ذلك تدفع هذ الملايين التى تتضور جوعاً سنوياً مائة مليون دولار نفقات قوات الإحتلال ومقابل نعمة حكمهم بواسطة دولة مسيحية متمدينة وندفع خمسة عشر مليون دولار مرتبات الموظفين البريطانيين الذين يؤمنون الاستقرار ويحولون بينهم وبين أى تمرد أو انفجار، وقد استنزفت بريطانيا خلال مائة وخمسين عاماً آلاف الملايين من الدولارات ولاتزال تستنزفها كل عام وذلك رغم المجاعات والأوبئة التى تحصدهم وكثيراً ماسمعت من بريطانيين كبار هناك أن الطاعون فقط هو الحل الالهى لزيادة السكان فى الهند وقال لى جنرال انجليزى بلا حرج لقد ابقيناهم فى فقر

مدقع حتى لا يثورون علينا ونحن نقلم أظافرهم فى كل مرة يحاولون.

ولم تنقطع المجاعات والأوبئة حتى النهاية وكان آخرها مجاعة البنغال عام ١٩٤٢ والتى راح ضحيتها أربعة ملايين هندى عقاباً للهنود على مطالبتهم برحيل بريطانيا عن الهند وتترك لهم مهمة الدفاع عنها ضد الزحف اليابانى.

كانت هبت الجياع تزحم شوارع المدينة فى كلكتا ولا تجد من يجمعها ولا يجد كبار الموظفين البريطانيين حرجاً من تخطى الجثث على أبواب مكاتبهم .

ولم يكن الفلاح البريطانى نفسه أحسن حالاً من رفاقه فى المستعمرات أو فى الشرق.

وكان استنزاف الفلاح البريطانى والعامل البريطانى فى القرن التاسع عشر، فى الأرض وفى المصنع حتى آخر قطرة عرق ، فضلا عن أنه يجند ويموت فى صحارى وأحراش الأمبراطورية .. ليثرى وينعم الإستعماريون وحينما استدعت مصر خبيراً مالياً بريطانيا لاستشارته فى أزمة الديون فى عصر إسماعيل وكان رجلا أميناً كانت أولى النصائح التى قدمها لحكومته.

لابد أن نكف عن التباكى على حال الفلاح المصرى وأن لا نتخذه ذريعة للتدخل وهو ليس أسوأ حالاً من الفلاح البريطانى ولعله أفضل حالاً من الفلاح الإيرلندى قرب شواطئنا.

وكانت وطأة الاحتلال والاستغلال والاستنزاف البريطانى لإيرلندا على مرمى البصر من الوطأة والقهر بحيث لم يجد الشعب حلا سوى الهجرة الجماعية إلى العالم الجديد على الشاطئ الآخر للمحيط وغرق عشرات الآلاف من المهاجرين فى مأساة تاريخية لم يغفرها الايرلنديون حتى اليوم.

وتلطخ التاريخ البريطانى بجريمة لاشك فى أن تصبح جرائم التاريخ وهى تجارة العبيد، وظلت بريطانيا حتى أواخر القرن التاسع عشر أكبر تاجر للرقيق فى التاريخ وكانت ليفربول عاصمة التجارة وتحفل بأسواق علنية لمختلف نماذج «البضاعة» ، وكان العبيد يصطادون، مثل كبوانات وبواسطة نخاسين افريقيين يجمعونهم فى حظائر وقلاع حتى تصل سفن تشحنهم إلى الأرض الجديدة. فى حراسة الاسطول حيث المشترين من أصحاب البضائع والمزارع الكبرى فى

ولايات الجنوب الأمريكي ويقدر عدد الذين راحوا ضحية هذه التجارة بمئات الملايين .. وقد رسبت المأساة في الوعي والضمير الأفريقي ، وحينما اعتذر عنها الرئيس الأمريكي كلينتون رد اليا الاعتذار مانديلا .

وتستطيع مصر أن تفخر بأنها كانت أول بلد في الشرق حرر الفلاح .. وذلك في اطار ثورة شعبية لتحرير مصر عامة..

وفي يوليو عام ١٨٠٥ ذهب رسول من طرف العلماء المجتمعين في دار القضاء ليبلغ الوالي العثماني أن الشعب في مصر اعلن خلعه وبايع واليا مصريا بدله..

وصاح الوالي في وج.

– لقد وضعني السلطان في المنصب ولن يخلعني الفلاحون.

وسقطت كل الأقنعة خلال الأزمة العاتية التي اجتاحت الاقتصاد الأوروبي عامة والبريطاني خاصة ، وذلك وفق دورة النظام الرأسمالي المحتومة وكانت أقسى ماأصاب الاقتصاد في مصر منذ الاحتلال ..، وامتدت إلى كل ارجاء البلاد وإلى

كل الطبقات ولم يشمر فخامته عن ساعده، ويصيب جهده قلبا وقلباً على انقاذ البلاد ، وخاصة أول ضحايا الأزمة واشدهم حاجة للانقاذ أى لايسىء الجلاليب الزرقاء ولكن أولى كل اهتمامه إلى المصالح الأجنبية وإلى كبار الملاك الموالين، وأصم اذنيه عن الذين بعثت به العناية لخلاصهم فى مصر..

ولم يلبث أن جاء الانقاذ وأشرق الأمل من حيث لايحتسب ومما ضاعف وطأة الصدمة عليها .. وخرج الحزب الوطنى بالحل الصحيح واعلان «الحل التعاونى للانقاذ الزراعى فى مصر.

وكان عمر بك لطفى من أقطاب الحزب الوطنى قد عكف على دراسة النظام التعاونى فى أوروبا ، وطاف بها والتقى مع قادة الحركة التعاونية هناك. وجعل من التعاون رسالة حياته، واعلن أن حلول كل مشاكلنا كامنة فى أرضنا ومعتمدة على إرادتنا وقام بجولة فى أرجاء الريف ليشرح للفلاحين مغزى النظام الريفى ومزاياه ووجد استجابة واسعة وحملت اللواء البشرى الأولى.

يسرنا أن نزف إلى المزارعين بشرى تهتز لها القلوب فرحا

وهى انشاء أول نقابة زراعية فى مصر فى بلدة شبرا النملة وقد توجه إليها سعادة عمر بك لطفى أول أمس وقام بعقد عمل ابتدائى بين كثير من أهل البلدة وذلك حتى تصدق الحكومة على القانون الذى اعده سعادته والخاص بالنقابات الزراعية .

وقد ثبت أننا فى أشد الحاجة إلى نقابات زراعية تضمن للفلاح مستقبله الزراعى وتحمينا من جشع المرابين الذين يتخذون من ضعفه وسيلة لابتزاز أمواله واستقلال أرضه».

وكشفت الأزمة الطاحنة كل عوارات وسوءات الاقتصاد الاستعمارى، وقامت بتعرية وفضح اسطورة الجلاليب الزرقاء» التى عاش وتشبث بها فخامة اللورد، وانطلقت الصحف الموالية والمعارضة على السواء لتكشف فصول تفاصيل المأساة الدامية التى عاشها الفلاح فى ظل الاحتلال البريطانى والتى لم تقدم شيئا يذكر إن لم تكن قد ضاعفت من وطأته، وأن ليس هناك مايمكن أن يفخر به فخامة اللورد أو يعبر به عن الفلاحين إن لم يكن العكس تماماً.

وكان الشيخ على يوسف صاحب المؤيد من أصدقاء فخامة .

اللورد وعلى أطيب الصلات مع الوكالة البريطانية بل كثيراً ماكان يبذل النصح لفخامته. ويسدى إليه المشورة لترشيد خطوات الادارة البريطانية ولكنه لم يملك ازاء وطأة الأزمة التى نزلت بالريف ووصلت به إلى الكارثة .. ان يكتب.

فتح الإحتلال الأبواب فى مصر لكل متشردى الدنيا ولكل الجماعات من كل أمة وجيش ودين وهم يفدون إلى مصر فى أفواج واعداد متزايدة كل عام يجدون فى العالم مهداً أكثر رفقة وألفة للنزيل أياً كان نوعه ومعظم هؤلاء من الأروام ويبدأون بإقامة أكواخ صغيرة لبيع الخمور الرديئة فى كل قرية من قرى القطر المصرى مهما بعدت أو كان عددها ثم يربون الخنازير ويثرون شيئاً فشيئاً حتى يصبح الصعلوك منهم فى بعض سنوات صاحب القرية ومالكها ودائنا لأهلها وسيدهم وينزل بهم أشد ضروب المهانة .

ولم يستطع «لطفى السيد» . أن يغمض عينيه عن الحقيقة «الصارخة» وكتب فى الجريدة .

يجيئ الرد منى مصر مفلسا يدخل إحدى القرى البعيدة عن مراكز الحكومة وينزلف إلى أعيان أهلها ويفسحون له فى مساكنها ملجأ يأوى إليه فلايزال بتجارته الرابحة من الجبن

والزيتون باضعاف القيمة وبثمن آجل حتى يصبح ثريا ويبدأ بإقراض الفلاحين بالربا الفاحش ولا يلبث على هذه الحال قليلا من الزمن إلا وهو دائن لأغلب أهل البلد ثم ينزع ملكية أرضهم ويستخدمهم فيها عمالاً وبسطاء وبأبخس الأجور وفى أشق الأعمال.

وبالطبع لم يتخلف اللورد وكتب :

يأتى هؤلاء أفواجاً وزرافات إلى مصر ذات الصدر الرحب والوفادة الكريمة وتتقبلهم قبولا حسنا وتفسح لهم مكاناً وتخول لهم المرح فى أراضيها وأرجائها والسير والعمل فى أنحائها ولكن لا يسعهم إلا الإساءة إلى هذه البارة المحسنة وما يعتمون حتى يمتصوا دماء ابنائها ويخربون ديارهم ويأيها الأخوة الفلاحون صبرا .. إن يومهم آت عما قريب.

وأيد الأجانب الأحرار ماكشف عنه المصريون، وكان لسان حالهم جريدة «الريفورم» الفرنسية والمتعاطفة دائماً وبحماس مع الوطنيين وكتبت :

لم تعد الحكومة فى مصر هى الظالمة الغاشمة الوحيدة والقادرة على التنكيل بالفلاح وإهدار انسانيته وحتى يصبح

ذليلاً خاضعاً مستسلماً ولكن هناك من هو أشد عسفا وبطشا من الحكومة وهو ذلك المرابى الأجنبى واليونانى خاصة والذى لفظته بلاده بعد أن أكل البرد عظامه وعض الجوع احشاءه وهبط إلى مصر لكى ينهب ويسلب محتميا بالاحتلال البريطانى.

وكان ماكنزى دالاس عضو فى بعثة دوفرين التى وفدت لتضع النظام «الجديد» فى مصر، واكتشف مدى الخديعة والنفاق ، ونفض يديه واستقال واشتغل بالصحافة وأصبح محور كتاباته التنديد بمؤامرة الاحتلال وأن ليس من حل للمسألة المصرية سوى عودة عرابى باشا ورفاقه وأن يتولو ا السلطة لا أحد سواهم اقدر على حل المشاكل المصرية – وفى مقال له فى صحيفة التايمس التى عمل بها زحف وباء شديد الوطأة على الريف المصرى من الاسكندرية إلى أسوان ثم زحف إلى السودان .. وهو البقال اليونانى وتحت ستار البقالة بنشر الخمور الرديئة حتى يتمكن الادمان ويفتك بالفلاحين ثم يتحول إلى الإقراض بالربا الفاحش حتى يجردهم من كل شىء ويقذف بهم إلى السخرية أو الفناء .. بينما يفتح لنفسه بنكا .. يواصل منه امتصاص الدماء.

وكتب باحث أمريكي بعد مائة عام عن اقتصاديات كرومر (روبرت تجنور) لم يحــدث أن تغلغلت رؤوس الأمــوال الاستعمارية الأوروبية عامة في بلد وأن تستنزف ثرواته وتستغل اغلبيته وهم الفلاحين مثلما حدث في مصر، وقد تغاضت الادارة البريطانية أرضا لأوربا التي لم تكن راضية على استثمار بريطانيا بالصين الثمينة – وفي الصين مضرب الأمثال كانت رؤوس الأموال تقف عند السواحل ولم يحدث مثل النهب الذي حدث في مصر.

وكشف طلعت بك حرب في الجريدة ١٩٠٦ موطن الداء ومنبته.

إن هم الحكومة المصرية هو تكبيل الصنائع والفنون واقامة العقبات في سبيل الصناعة وأقرب الأمثال التي لاتحتمل السكوت ما فعلته من التضييق على مصانع القطن في هذا القطر وذلك لأن الإنجليز أهل غيرة على صناعة الانكشاير الوطنية في انجلترا . وأن الأرض المصرية هي أفضل أرض ومنبت لهذا المحصول.

وسقطت كل أردية الامبراطور وكان المنظر مشينا بشعاً» بعد مذبحة فلاحي دنشواى ذوى الجلاليب الزرقاء وقد ايدها

بحماس لأنه «كانت هناك ثورة دامية يعدون لها منذ بعض الوقت وإن لم تقمع فى دنشواى لأريقت الدماء وعصفت بكل ماحققناه في مصر وامتدت إلى الشرق عامة وأن على الدول المسيحية ذات المصالح الكبيرة فى الشرق أن تقضى عليها في المهد حتى لا تعود البلاد إلى الماضى القديم الأليم وان نغرق ثانية فى الفوضى والخراب وأن ينهار كل ما حققناه طوال السنين من استقرار ورخاء» بل سيكون الانهيار التام هو المصير المحتوم».

وخرج فخامة اللورد من مصر ومن التاريخ عامة وانضم إلى سلسلة النكرات فى سلة مهملات التاريخ ومات محسوراً لم يتحقق الحلم الذى عاش له وأن يعتلى المنصب الثانى فى الامبراطورية عرش نائب الملك فى الهند.

سقوط جلاد المصريين

ولكن بقيت الأمة ساكنة فى الظاهر مشتعلة الوقود فى الباطن تؤسس فيها الجمعيات السرية ويؤلف رجالها المؤلفات الجليلة وما غرض القوم من تلك الجمعيات والمؤلفات الا شرح مزايا تلك الروح المحبوبة وهى روح الدستور ومازال المقربون من جلالة السلطان يكدون قواهم فى إخفاء الحقائق ومازالوا يهونون عليه أمر اشتغال الأمة بالدستور وامر المشتغلين به حتى امتلأ المرض وطفح الكيل وبلغ السيل الزبى وانتشرت تلك المبادئ الحرة فى العقول الشابة انتشار اشعة الشمس فى كل نافذة ومثل هذه الفكرة الصالحة مثل حبة انبتت سبع سنابل ومازالت هذه المبادئ الحرة بفضل المشتغلين بها خارج المملكة جهارا وداخلها تحت الرماد تتسع وتنتشر بين طبقات الأمة حتى وصلت إلى اليجش وهناك بدأ الخطر الكبير على الدولة العرش الحميدى.

كما كتب لطفى السيد يحيي الحدث فى الجريدة ويدعو لاستخلاص العظمة.

وانتفضت الصحف المصرية الوطنية تبارك وتمجد اعظم الأحداث.

انتهت ثلاثون عاما من الحكم الحميدى كانوا اشد سوادا واستبدادا من كل ما سبقها من حكم أسلافه.. امتلأت القلاع بالسجون آلاف من السجناء ومضت السنون على آلاف من العثمانيين المحبين للصلاح وهم خارج بلادهم يحنون إليها حنينا ولا يجدون لها سبيلا وكانت الدولة العثمانية كما يكره الحبيب ويشتهى العدو أمما مختلفة اللغات مختلفة المذاهب والمشارب متناقضة المصالح والمنافع كانت كلمة سكنت فتنة فى سهل انفجرت فى جبل وكما خمدت نار الفتن الداخلية اشتعلت الخارجية ومعها التهديدات الدولية. كل ذلك واعضاء الدولة وعمالها تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى وذلك لأن القاعدة كانت التفريق فى معاملة الطبقات المختلفة فلا مساواة يرضى بها الوطنى من الوطن ولا حرية فى العمل ولا فى القول لمحسن أو مسىء .

بعد الانفلات كتب اليوم سرى دم الحياة فى عروق السلطنة وخلفت خلقا جديدا ماتت تركيا التى اخذ منها الهرم مأخذا وقامت مقامها تركيا الفتاة تضع الدستور وتحيا

بالدستور واجتمع لها كل عناصر الحياة الجديدة وحلت بها المساواة والعدل والحرية وعاد الآلاف من المنفيين ويتأهب آلاف آخرون للسفر الى ديارهم ويتعانقون تعانق الولاء والإخاء مع اختلاف الملل والنحل .

طغت أخبار الحدث المجيد فى اسطنبول على كل الاحداث وانصب عليه كل الاهتمام .

فرحت الأمة المصرية وعم الفرح الأمراء فى قصورهم والعلماء فى مكتباتهم والسراة فى ضياعهم وفرح به الرجال والشيوخ والأطفال ومامن حركة قوبلت بالفرح الشامل مثلما قوبل به الدستور العثماني. ولا يمكن لأحد مهما تحكم أن يفسر هذا الفرح الا بأن الأمة المصرية مجمعة على أنها تريد لنفسها ما كسبه العثمانيون ويعتبر فرح الأمة احتجاجا من الأمة المصرية واظهارا للسفور الكامل بالحاجة الى الخروج على حكومة الفرد .

ولم يسبق فى اى يوم من الأيام ان تدفق هذا السيل من المصريين وفودا وأفرادا على اسطنبول .

يسافر كثير من أعيان البلاد الى الاستانة وإلى سوريا

بأفواج لم تحدث من قبل ويظهرون سرورهم بالدستور العثماني وان اقل البواعث التي حملت كلا منهم على السفر إلى هناك إنما هي الثقة بالحكومة الدستورية ، اليس هذا كافيا في الدلالة على السفور الكامل بالحاجة الى الدستور هنا في مصر .

احتلت «اخبار اسطنبول وتطورات الاحداث فيها ملء صفحات الجرائد الوطنية، ولم يسبق ان اهتمت بحدث خارجي كما اهتمت بالدستور العثماني.

اوفدت كل جريدة مصرية من الجرائد الكبرى مندوبا عنها من أهم محرريها إلى الاستانة لينقل للرأي العام بانتظام اخبار الدستور ويسود الاهتمام بذلك كما لم يسبق من قبل ولم يحدث ان ارسلت الصحف مندوبيها واهتمت بحدث في تاريخ الصحافة المصرية مثلما أرسلت لتتبع اخبار الدستور ويسود الناس السفور بأن الدستور في مصر أصبح وشيكا . وتعاقبت التطورات والمفاوضات في ملاحم واساطير لم تطرأ من قبل على خيال أحد .

إن رجال الدين من مسلمين ومسيحيين وغيرهم أخذوا يتعانقون وبعضهم يذرف الدموع فرحا وسفاك الدماء المسلم

فى بيروت ذهب مع قسيس من المسيحيين وشرب كل منهم نخب الآخر ثم دعاه الى المآرب والأفراح دلالة على التآخى والتراضى.

وأرسل الأحرار فى الاستانة وفدا إلى مقبرة الاف الأرمن الذين ذبحوا سنة ١٨٩٥ ونثروا عليها الازهار وجاءوا بأحد رجال الدين وصلى على عظام القتلى ثم قرروا أن يقيموا لهم نصبا تذكاريا على نفقتهم فأى عمل اسمى من هذا العمل الذى يعلى شأن أحرار المسلمين فى عين العالم كله بل أى لسان فى أوروبا يجسر الآن على القول بأن هناك نقصا دينيا وأى خطر لعبد لا يبدو له الآن مشهد المستقبل الزاهر بفصل ذلك الاتحاد والتسامح كما كتب الشيخ على يوسف فى المؤيد وفاض سيل المقالات والتعليقات وعلى الصفحات الأولى.

بعد أن كانت الأقلام مقيدة وأيدى الرقباء تضغط على أدمغة الكتاب بأصابع من حديد اصبحنا وإذا التلغرافات ترد من بيروت وغيرها تبشر بأن الصحف صدرت بلا رقابة.

كما كتبت الجريدة وقالت اللواء .

انتفخت رءوس الساسة الأوروبيين وتدرجوا من ذلك الى

أن ظنوا ان الشرق من طبعه ان يكون عودا للغرب وان الغرب لابد وان يبقى سيدا قويا يتصرف فى الشرق كما يشاء ولم يراقبوا فضيلة التواضع ولا شعور الحرية ولم يحترموا فكرة العلم الصحيح بل جهروا من غير حياء بأن الشرق امتعة تنتقل فى سوق السياسة من يد دولة إلى دولة أخرى.

وكتبت أيضا :

أن الدستور العثمانى انما هو طليعة من طلائع الحرية فى الشرق يجب أن يتبعه بالزمان فرز كل أمة شرقية مستعدة إلى نيل الدستور .

واذا كان المصريون يفرحون بالدستور العثمانى فإنما يفرحون به لا لأنه يغيرهم مباشرة وبالذات فى تحقيق أمانيهم ولكنه يقوى من عزائمهم فى طلب الدستور ويقلل من عناد حكومتهم الفردية فى رفضه واذا كان الدستور العثمانى الذى هو الدواء الوحيد لمرض الدولة العلية فإنه معه ذلك يعتبر بشرى للمصريين فى أن يقلهم الدستور لم يصبح امرا مستحيلا ولا معوقا بالامتيازات الاجنبية ولا بعيدا عن آماله .

وكتبت الجريدة :

ليس من الأصالة في الرأى ان يظن أحد ان سياسة الوفاق بين عابدين وقصر الدوبارة والتي يضيفون الى نتائجها مايضيفون الى نتائجها ما يضيفون من شأنها ان تبعدنا عن الدستور الذى نطلبه على أى شكل ذلك لأن سياستنا يجب أن تبقى على ماهى عليه خلال سياسة الوفاق تماما كما كانت عليه مدة سياسة الخلاف .

ورغم المظاهرة الوطنية الديمقراطية الكبرى التى صحبت احداث اسطنبول إلا أنه حينما ذهب الحماس بعيدا بالمؤيد وصاحبها وطالبت.

ان تستعد مصر لانتخاب نواب يمثلونها في مجلس المبعوثان بحكم تبعتها للامبراطورية العثمانية.

تصدت الجريدة والحزب الوطنى على الفور .

إن الأمر لا يمتد الينا وإن لدينا تطورا للدستور الخاص والذى يسبق العثمانيين بعشرات السنين.

ولم تمنع ان ينظم الحزب الوطنى حملة شعبية تأييدا للدستور العثماني. وانهالت البرقيات على الصحف من كل انحاء البلاد .

قالت برقية أهالى قنا

لقد ابتهجت النفوس وانشرحت الصدور بصدور الارادة السلطانية بمنح الأمة العثمانية حكما دستوريا فهل لمولانا العباس ان يقتدى بجلالة متبوعه الأعظم امير المؤمنين ويمنح أمته مجلسا نيابيا نحن فى أشد الحاجة إليه .

وقالت برقية أهالى الغربية من طنطا :

جميع الأهالى هنافى ارتياح عظيم لما نالته الأمة العثمانية من الدستور ويتمنون المجلس النيابى للأمة المصرية.

وأعلن الحزب الوطنى أن الزعيم محمد فريد سوف يقوم بزيارة اسطنبول مع وفد من الحزب لتهنئة الحكومة والنظام الجديد.

وأدرك الخديو ان المظاهرة الكبرى كانت موجهة إليه بطريق مباشر أو غير مباشر، ولم يكن ممكنا له ان يظل صامتا. وكان الأمر لا يعنيه ، ولم يلبث ان اعلن انه سوف يقوم بزيارة اسطنبول لتقديم التهنئة ودراسة الأوضاع الجديدة والتعارف مع قادة الانقلاب .

وانفجر بركان الغضب واستدعى السير الدان جورست

رئيس تحـــرير المقطم لكى يدلى له بحـــديث حـــاسم ينذر المصريين ويحذرهم كالعادة من عواقب التهور والتطرف قال :

إن ما يحدث فى تركيا لا صلة له مطلقا بالواقع فى مصر ولا أثر له عليه ولا علاقة له مطلقا باستعداد مصر للحكم الدستورى أو أهليتها لذلك وهنا فى مصر دستور قائم بالفعل ويناسب واقعها وهو القانون النظامى الصادر سنة ١٨٨٣ وبريطانيا على استعداد لتوسيع نطاق هذا الدستور تدريجيا على قدر ما يسمح به تطور وعى وإدراك الأهالى وان الضجة القائمة الآن حول المطالبة بدستور وحكومة نيابية كاملة على غرار ماهو قائم فى بريطانيا او فى البلدان الأوربية الأخرى هو مجرد هراء ولا أشك فى أن الظروف الضرورية لقيام مثل هذا النظام لم تتوافر بعد فى مصر والتفكير فى هذا الاتجاه ليس الا ضربا من الحماقة ومن التهور .

واختتم المعتمد البريطانى حديثه باقتباس من خطبة الرحيل التى خلفها للورد قائلا :

لابد من مرور جيل او جيلين على الاقل قبل أن يمكن التفكير فى منح مصر دستورا ولاشك فى ان قيام نظم دستورية فى غير اوانها لن يؤدى لأسوأ النتائج فحسب بل

إلى تقويض آمال ومشاريع الذين يتمنون مثلى ان تنال مصر حكما ذاتيا واستقلالا داخليا حقيقيا ويحسن بالمصريين ان يبرهنوا اولا على قدرتهم على ادارة المجالس المحلية ومجالس المديريات وتحقيق حاجات الأهالى عن طريقها واسلير قدما في توسيع اختصاصها والتدرج بها نحو تطور ابعد .

كان الانضمام تاما بين جنابه وبين واقع الأمة . وأثار حديثه السخرية والزراية وانصبت عليه حملة شعواء جارفة قالت اللواء :

لازالوا يصرون على أن الأمة المصرية قاصرة، ولن تكون أهلا للحكومة الدستورية وكان خق الأمة في حكم نفسها بنفسها لا يتم الا بشهادة من حكومة أجنبية مستعمرة مستبدة نقر لها بأنها أصبحت على كفاءة تؤهلها للحكم الذاتي وهي الذريعة المصطنعة التي اخترعها الانجليز لكي يمدوا بها من اجل سيطرتهم ولينقلها عنهم بعض اذنابهم كما يرددونها كلما عرضت فكرة الدستور والحكم النيابى .

وعكف أحمد لطفى السيد على إعداد بيان يرد به على المعتمد ويفند كل دعاويه ويكشف بطلانها . ويستنفر الأمة ضدها كتب :

«طالما كرر الإنجليز ان الأتراك ليسوا أهلا للحكم النيابى والدستورى تماما كما يفعلون فى مصر وذات يوم خال المستر دستون بثقة ويقين أن دستور مدحت باشا من أشد الأعمال وقاحة والتى يريد الأتراك ان يخدعوا به أوروبا ودافعا على ذلك اللورد سالسبورى عن المحافظين وكان ينظرون بعين الاحتقار والاستهانة للاتراك ويؤكدون ان الشرقيين عامة لايفهمون من طرق الحكم الا الحكم الفردى المطلق ولايتصورون شكلا للحكومة الا الشكل المستبد واكد اللورد دسالسيورى بكل ثقة أن قيام مدحت باشا وأنصاره بإعلان الدستور إنما هو عبث سياسى وأن حزب تركيا الفتاة ليس سوى مجموعة صبيان وبصيغة افراد متفرنجين لا يمثلون سوى أنفسهم .

واستطرد رئيس تحرير الجريدة :

«كانوا يهزأون بهم، ولا يحسبون لهم اى حساب ويتحدثون عنهم كقلة وافراد منفيين فى باريس وجنيف لايمثلون سوى انفسهم وهاهم الآن يباركون ماحدث فى تركيا وعبر خونة ولا ندرى بأى حق او بأى عين يصر الانجليز على ترديد نفس الاقوال عن المصريين وعلى حرماننا من الحق الطبيعى

الدستورى .. ان مصر اكثر تجانسا من تركيا وقيام مجلس نيابى فى مصر أعمق جذورا واسلم عاقبة من تجربة المجلس النيابى فى الاستانة.

واعلن الحرب الوطنى :

«إن الحزب يثق ويؤمن أن مصر أكثر استعدادا وأهلية لحكم نفسها بنفسها لا من تركيا فحسب، ولكن من كثير من الدول الأوروبية وسوف تظل مصر تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالها بحق والواجب على حضرات أعضاء مجلس شورى القوانين ان يقرروا فى أول اجتماع لهم طلب الدستور وأن يصروا عليه وان يمتنعوا عن الاجتماع مرة أخرى اذا لم يجابوا إلى مطلبهم».

وحدثت المعجزة فى اول ديسمبر ١٩٠٨ وسرت الشرارة إلى مصر وكانت اكثر بلاد الشرق تقبلا لها، بل لعلها كانت الرائدة.

واجمع مجلس الشورى الذى اختلقه دوقرين والذى هيمن عليه كرومر ورسم له مساره .. وأعلن إعلانا تاريخيا أهلية مصر وحقها الطبيعى فى الاستقلال والدستور .

وصدق كل الأعضاء بما فيهم أقطاب حزب الأمة الذى اطمأن كرومر انه سوف يكون الحارس الأمين على تراثه .

وصدق على ذلك لطفى السيد وأعلن :

ان اول ديسمبر ١٩٠٨ كان الحد الفاصل بين فناء الأمة فى شخص حكومتها ومن عصر جديد تتشكل منه الأمة على نفسها بنفسها في وجود ذات منفلت ومرت مياه كثيرة تحت الجسور وتوارى فخامة اللورد فى سلة مهملات السياسة البريطانية حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ولأول مرة دخل وزارة الخارجية ليبارك قرار خلع الخديو الذى تأخر كثيرا وكان اول من اشار وألح عليه ولكنه اضاف ان الخلع لا يكفى وأن الفرصة سانحة تماما لإعلان ضم مصر نهائيا للامبراطورية البريطانية وأن ذلك هو الحل الحاسم والوحيد .

وبعد البحث والجدل اعتذرت الحكومة واكتفت بإعلان الحماية مؤقتا وتمكن اللورد على الثأر وكتب .

كتابه عن عباس الثانى نفث فيه كل أحقاده .. ولما كان الخديو خصما عنيدا ، ولا يسلم وكان يومئذ يعد لحملة وثورة فى مصر والسودان فقد سارع بالرد وكتب بمعاونة صديق

انجليزى له ردا يفند ماجاء فى كتاب كرومر وكان له حلقة من المعجبين والمنتفعين البريطانيين حقق بهم أهدافه المشروعة وغير المشروعة ايضا .

عاش الخديو ليروى القصة كاملة ويقتص لنفسه ولمصر، وفى وثيقة من أهم ما كتب عن مصر الحديثة وهى مذكراته .. الكاملة!.

- كتب فى المذكرات ..

ليس مما يغتفر للإنجليز أنهم شكلوا محكمة استثنائية ليحاكموا فلاحين وادعين لم يرتكبوا جرما الا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم ولكن جريمتهم فى ذلك لا تقاس بجريمة أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض ان يشتركوا فى تلك المحكمة واباحوا للدولة المحتلة تلك الترضيات التى ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم اى رفض بسيط .

ان الوزراء المصريين لم تبدو منهم أى بادرة للتخلص من ذلك الشرف المحزن شرف محاكمة مواطنيهم ولم تنطق شفاههم بكلمة طيبة واحدة لقد ضحوا للأجنبى دون احتجاج ودون تردد بأولئك التعساء الذين عهدوا إليهم بمصيرهم

والذين كان عليهم ان يستمعوا إليهم قبل الحكم عليهم ولم يشر أى احد الى الظروف المحققة فى قضية كانت اكثر القضايا استحقاقا ولابد أن اسجل ان المقال الذى نشره مصطفى كامل فى «الفيجارو» الفرنسية فى ١١ يولية ١٩٠٦ احدث دويا عظيما واثار ضمير العالم .

ولقد كان الى لذلك الأمر كبيرا وفادحا وكم أرقنى ليالى طويلة ولم يكن العنف البريطانى وتخاذل الحكومة المصرية قد سمح لى بفرصة التدخل .

وقد فعلت المستحيل لتعويض ضحايا دنشواى الذين لم ينشقوا ولكن اللورد كرومر اعترض قائلا : إن فى ذلك مساس بشرف الجيش البريطانى وكان علىّ ان انتظر حتى يذهب لكى افعل ما استطيع وبدا ان الانجليز ادركوا فى نهاية الأمر ما سوف تجره الأحداث وأن الحركة وسخط الشعب لا يقاوم، وأن الوقت لن يطول حتى يصبح جيشهم الذى يحتل مصر غير كاف وغير قادر على حماية نفسه من هجوم شعبى .

وانتهى الرأى إلى استدعاء كرومر غير مأسوف عليه من أحد.

الفهرس

رقم الايداع
٢٠٥٩٩ / ٢٠٠٢
977-07-0977-8

هذا الكتاب :

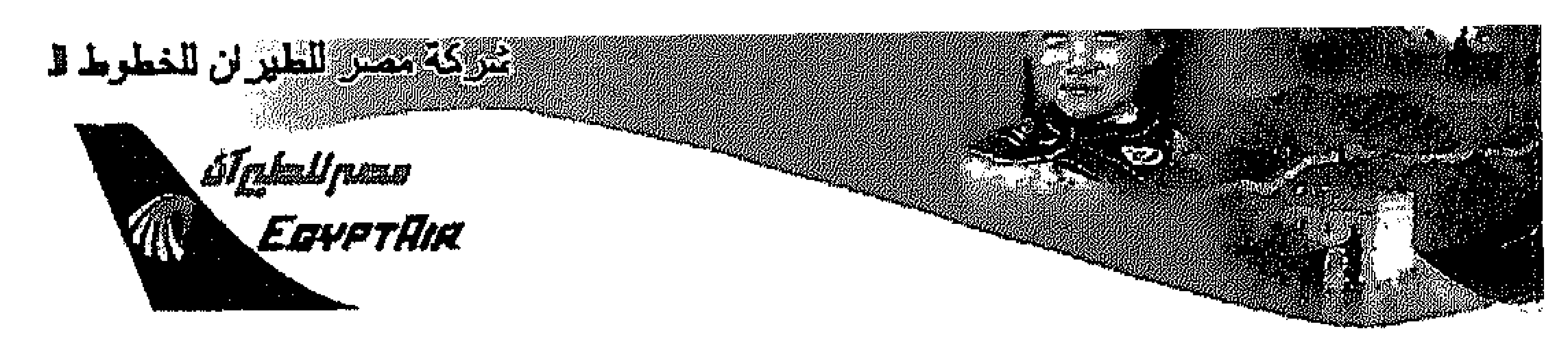
استمر الاحتلال البريطاني لمصر سبعين عاما ونيف، وقعت خلالها أحداث كثيرة. لكن يبدو أننا نسينا.. لكن محمد عودة لم ولن ينسى... فكتب لنا صفحات من هذه الأحداث. وتكاد تحس وأنت تقرأ كلماته أنك جالس مع حفيد للجبرتي كان على شاطئ الإسكندرية واقفاً ساعة نزول نوات الاحتلال فرصد الواقعة ومن ساعتها وهو ملازم لها فانتقل معها إلى القاهرة وظل يراقبها ويشاهد حروب المقاومة الشعبية لها وهي تتصاعد حينا وتخبو أحيانا أخرى. واستمر على هذا الحال حتى رأها وهي تجلو عن البلاد.

وقد اختار لتسجيل هذه الأحداث شخص كرومر لما تركه قائد تثبيت الاحتلال من أثر على حياة مصر والمصريين بما احتاج إلى ثورة لإزالة ما خلفه. وتكاد تحس أن حفيد الجبرتي هذا هو راو وشاهد عيان يروى لك كل ما يثير كل اهتمامك ولا تستطيع أن تفارقه قبل أن يكمل الحكاية.

ومع ذلك فهو ليس بكتاب لمؤرخ بل هو لمصور لا يحمل آلة تصوير انما يحمل قلما يستطيع ما لا تقدر عليه «الكاميرا» فهو يسجل أبعادا للصورة من زوايا مختلفة، ويتلمس مشاعر من تضمهم فردا فردا سواء أكانوا من عامة الشعب أو من الزعماء أو حتى الخديو نفسه. وهو لا ينسى الآخرين الذين لم

يظهروا فى الصورة لكنهم كانوا فاعلين ومؤثرين. وتحس وكأنه يعرف كل واحد منهم معرفة شخصية!! ويعرف خبايا نفسه وما تسول له فيرى قائدهم وهو يبدأ يومه بقراءة الانجيل ثم يتوجه بعدها إلى مكتبه ليوقع قرارات الاعتقال وايقاع الاذى بمصر والمصريين وأن تبجح وادعى أن همه الأول هو إصلاح حال أصحاب الجلاليب الزرق من الفلاحين. ويرى شخص كرومر هو فى أوج قوته وجبروته كما يراه وهو فى أوج ضعفه وقد هزمه المرض وأخذ ينظم بكبرياء ترتيبات الاحتفال بوداعه عند سفره ومغادرته البلاد. ويرصد مشاعره كما يرصد مشاعر الذين رفضوا المشاركة والذين استجابوا للدعوة. ينظر محمد عودة إلى هذه الأحداث. وكل عيونه محدقة بكفاح الشعب الذى يؤمن بأنه شعب لا تهن له عزيمة وأن شعلة نضاله لا تخبو مع الزمن. إنه يؤمن بقدرات هذا الشعب وتصميمه على العيش فى عزة وكرامة.

ومحمد عودة صديق لكل الشعوب المناضلة ويرى أن نضال شعب مصر هو مشترك مع كل شعب يناضل من أجل حريته.. فى الصين.. فى الهند فله كتبه ومقالاته التى تروى حكاية الاحتلال مع هذه الشعوب. إن بين يديك عزيزى القارئ كتابا لمحمد عوده وهذا يكفى..



الصين

خط جديد ... و رحلات جديدة

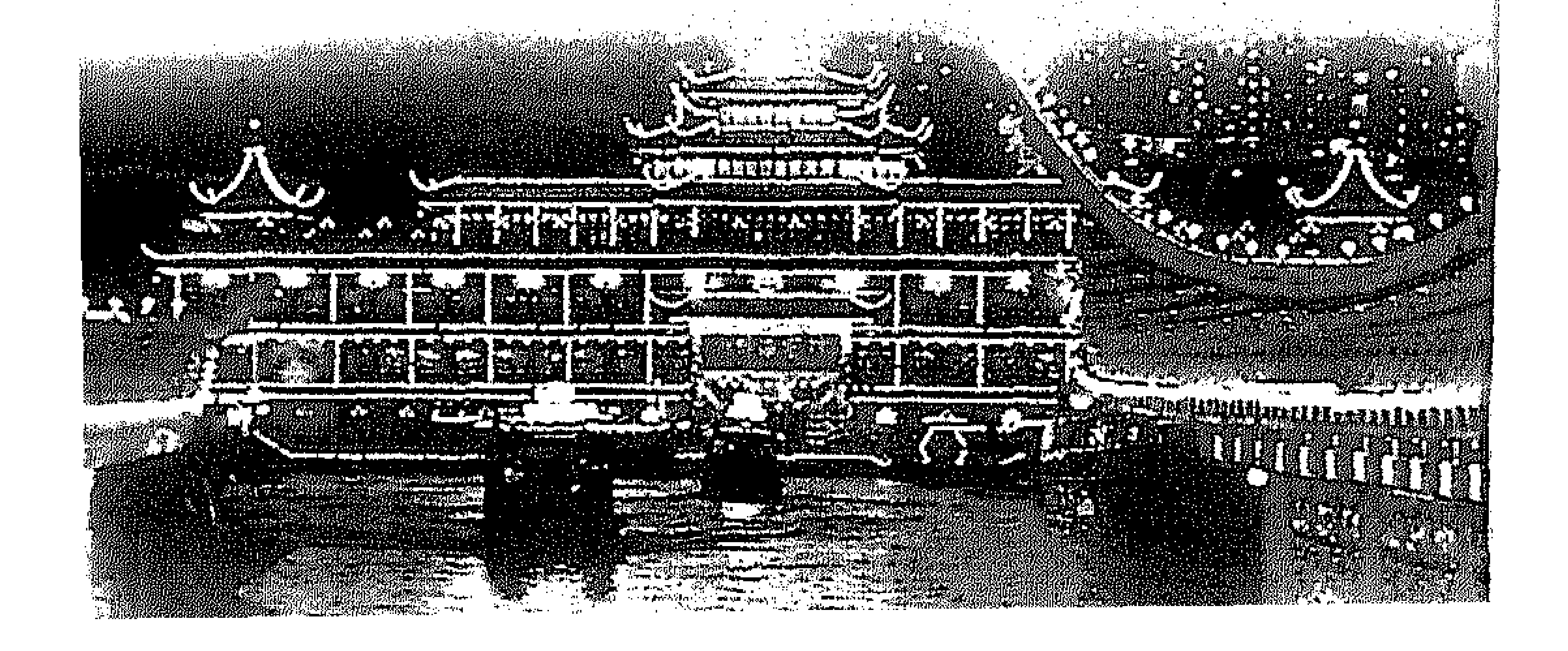
مع مصر للطيران

أعتباراً من ٢٨ يناير

القاهرة / بكين / القاهرة

الثلاثاء و الجمعة

بأحدث طرازات الطائرات





أدبيات
غاندى
مقاتل بلا حروب
مجدى سلامة
نساء العرب
مواقف وطرائف ومعارك
الكعبة المشرفة
هيكل اليهودى التائه
أحمد بهاء الدين
سيكولوجية الإرادة
من شرفات التاريخ
مناظرات على الورق
طغاة قريش
الشخصية المتفجرة
قادة الفكر الفلسفى